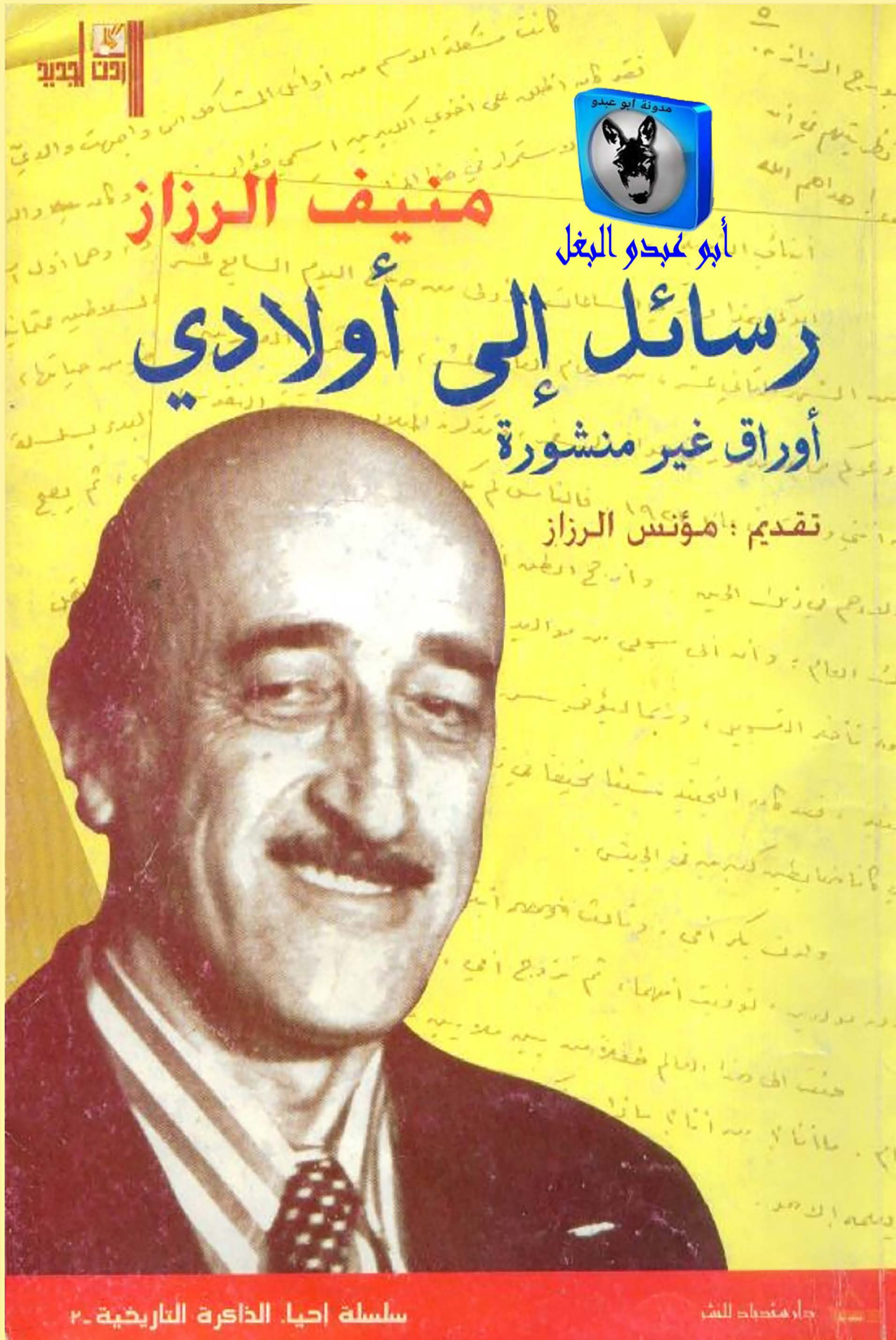

الأردن الجديد
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
منيف الرزاز
رسائل إلى أولادي
أوراق غير منشورة
تقديم : مؤنس الرزاز
سلسلة إحياء الذاكرة التاريخية - ٢

رسائل إلـــى أولادي

٩٢٨,١
منى منيف الرزاز
رسائل إلى أولادي، منيف الرزاز، تقديم مؤنس الرزاز.- عمان
مركز الاردن الجديد ١٩٩٣
(١٣٢) ص
ر.أ (١٩٩٣/٥/٥٠٤)
١. الأدباء العرب- تراجم ٢. منيف الرزاز- تراجم
أ. مؤنس الرزاز، مقدم ب. العنوان
تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية

اصدار:
مركز الأردن الجديد للدراسات
دار سندباد للنشر
عمان- الاردن ص.ب: ٩١٠٢٨٩
هاتف: ٦٥٧١٣٢- ٦٥٧١٤٣
فاكس: ٦٥٧١٣٢

الطبعة الأولى- أيلول ١٩٩٥

طبع بدعم من
مؤسسة عبد الحميد شومان

سلسلة احياء الذاكرة التاريخية -٢

د. منيف الرزاز

رسائل إلى أولادي

تقديم: مؤنس الرزاز

دار سندباد للنشر
عمان- الاردن
ايلول ١٩٩٥

مركز الاردن الجديد للدراسات

مؤسسة أردنية مستقلة تأسست عام ١٩٩٠ لغايات البحث العلمي

واعداد الدراسات والاستشارات.

ليس للمركز اي ارتباط حكومي او حزبي. وتعبر الدراسات الصادرة عن المركز عن آراء مؤلفيها ومحرريها،

ولا تعكس بالضرورة رأي المركز أو وجهة نظره.

مركز الأردن الجديد للدراسات

بناية فايز السعدي، الطابق الأول، شارع السعدي قرب مستشفى لوزميلا- جبل اللويبدة

هاتف: ٦٥٧١٣٢- ٦٥٧١٤٣، فاكس: ٦٥٧١٣٢

ص.ب ٩١٠٢٨٩، عمان ١١١٩١ الاردن

Al-URDUN AL-JADID
RESEARCH CENTER

An Independent Jordanian Institution founded in ١٩٩٠ for the purpose of scientific research, studies and consultations. The Center has no governmental or political affiliation. Studies published by the Center express the views and opinions of their authors and contributors, and do not necessarily reflect the views and opinions of the Center.

PUBLISHER:

AL-URDUN AL-JADID
RESEARCH CENTER.
Al – senbad

Tel: ٦٥٧١٤٣ – ٦٥٧١٣٢.

Fax: (٩٦٢-٦) ٦٥٧١٣٢.

P.O.Box: ٩١٠٢٨٩. AMMAN. ١٩١١١ JORDAN.

المؤلـــف

- ولد في دمشق عام ١٩١٩. وجاء الى عمان مع اسرته عام ١٩٢٦.
- درس في مدارس عمان والقدس والتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت لمدة سنة واحدة ثم اضطر الى الرجوع الى الأردن، لأسباب مادية، فدرس العلــوم والرياضــيات فــي مدارس عمان الثانوية. بعد ثلاثة أعوام من التدريس في عمان انتقل إلى جامعة القاهرة لدراسة الطب. وبعد تخرجه عاد الى عمان ليمارس مهنته طبيباً.
- انتسب إلى حزب البعث (فرع الأردن) عام ١٩٥٠، وخاض الانتخابات النيابية الأردنية عام ١٩٥١.
- أُنتخب أميناً عاماً للقيادة القطرية لحزب البعث في الأردن في مطلع الستينات.
- أُنتخب أميناً عاماً للقيادة القومية لحزب البعث عام ١٩٦٥ وانتقل إلى دمشق حيث كــان الحزب حاكماً. وكان أول أمين عام جديد للحزب بعد ميشيل عفلق.
- اختفى في سورية بعد انقلاب ٢٣ شباط حيث انتقل بعد ذلك إلى لبنان. ثم عاد إلى عمان في أواخر عام ١٩٦٧.
- شارك في الهيئات القيادية للمقاومة الفلسطينية حتى عام ١٩٧٠.
- أُنتخب أميناً عاماً مساعداً لحزب البعث العربي الاشتراكي وشاركه في هــذا المنــصب صدام حسين وشبلي العيسمي، وكان الأمين العام للحزب ميشيل عفلق.
- زج به وبعائلته في الاقامة الجبرية في بغداد عام ١٩٧٩.
- توفي وهو في الاقامة الجبرية في العراق عام ١٩٨٤، ودفن جثمانه في الأردن.
- زج به في معتقل الجفر الصحراوي حوالي ٤ أعوام. وطالب المدعي العام في ســورية (عام ١٩٦٧) باعدامه، وأمضى في الاقامة الجبرية ببغداد ٦ سنوات.
- له مؤلفات فكرية عديدة، جمعت ونشرت تحت عنوان الأعمال الفكرية والسياسية لمنيف الرزاز.
- قررت رابطة الكتاب الأردنيين إقامة جائزة سنوية باسمه، وتمنح الجــائزة للمفكــرين العرب والأردنيين الذين قدموا أعمالاً فكرية تخدم الفكر التحرري والذين ناضلوا ضــد التخلف والاستعمار.
- متزوج من السيدة لمعة بسيسو وله ثلاثة أبناء: مؤنس وعمر وزينة.

المحتـــويات

الباب الأول: رسائل إلى أولادي

الباب الثاني: الجامعات العربية أمكنة دراسة. الجامعة الامريكية

مكان لحياة جامعية شاملة

هذا الكتاب.. وهذه السلسلة

في اطار جهود مركز الأردن الجديد للدراسات للاسهام في تدوين ودراسة تاريخنا الأردني والعربي، الحديث والمعاصر، يأتي نشر رسائل إلى أولادي للمفكر والمناضل منيف الرزاز.

و رسائل إلى أولادي هو الاصدار الثاني من سلسلة احياء الذاكرة التاريخية التي يشرف مركز الأردن الجديد على تحريرها، والتي تستهدف الاسهام في كتابة تاريخ بلادنا والمنطقة العربية باقلام ابنائها، بهدف أن تكون حلقة وصل بين الأجيال الشابة من شعبنا وبين ميراث الرعيل السابق من المناضلين والرواد، الذي حالت الظروف السائدة حتى وقت قريب، دون التعرف على أفكارهم وتصوراتهم وخبراتهم وتجاربهم الحياتية والسياسية الحافلة. وكانت الحلقة الأولى من اصدارات هذه السلسلة قد نشرت في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩١، متضمنة مذكرات المناضل د. عبد الرحمن شقير والتي حملت عنوان: من قاسيون.. إلى ربة عمون، رحلة العمر.

و " رسائل الى أولادي ليست فقط حلقة من حلقات مشروع طموح لاحياء ذاكرتنا التاريخية، أردنيا وعربيا، فهي آخر مخطوطة خطها المناضل الراحل منيف الرزاز، قبل ان يتوفاه الله، وهو في الاقامة الجبرية التي فرضت عليه في السنوات الأخيرة من عمره، فهذه الأوراق غير المنشورة كانت، على ما يبدو، مقاطع أولى من مذكراته الشخصية التي لا نعلم بعد ان كان قد اتمها فعلاً وظلت الأجزاء الأخرى منها، مع مكتبته وأوراقه الأخرى، في بغداد، أم ان هذه الأوراق هي كل ما خطه من مذكراته قبل أن يفارق الحياة.

ويجد القارىء الى جانب المقاطع الثمانية عشر من أوراقه (مذكراته)، فصلاً آخر من أربعة مقاطع، كان المرحوم الرزاز قد خطه عن حياته ابان دراسته الجامعية. ولا نعرف أيضاً متى كتب هذا الفصل الذي يدخل في باب المذكرات، ولم ينشر من قبل. ولقد ارتأينا أن يضاف هذا إلى المقاطع الثمانية عشر من أوراقه سائل إلى أولادي، ليجمعهما كتاب واحد.

ولا يسعنا، بهذه المناسبة، إلا أن نتوجه بالشكر والامتنان إلى السيدة المناضلة لمعة بسيسو الرزاز أم مؤنس وإلى الأخ المناضل والأديب مؤنس الرزاز، تقديراً لهما على الثقة التي محضاها لمركز الأردن الجديد للدراسات، وللعاملين فيه، وانه ليسعد ادارة المركز أن

يكون نشر هذه المخطوطة، من خلاله، بعد ان انتظرت في ادراجه عدة أعوام قبل ان يستكمل المركز تأسيسه.

ان مركز الأردن الجديد للدراسات إذ يعبر عن اعتزازه بالاصدار الثاني من سلسلة احياء الذاكرة التاريخية، ليعد بمواصلة اصدارات هذه السلسلة بوتيرة أسرع. وهو يتمنى على القراء والباحثين والمؤرخين بان يتقدموا إليه بملاحظاتهم وتصويباتهم وانتقاداتهم وما يرونه من اقتراحات مفيدة، تعزز قدرة هذه السلسلة على تقديم المزيد من المخطوطات والمذكرات والدراسات التاريخية وعلى تطويرها في الشكل والمضمون.

هاني الحوراني

عمان في أيلول ١٩٩٥   مدير مركز الأردن الجديد للدراسات

عن أبي.. وهذه الرسالة الطويلة

مؤنس الرزاز

ماذا يمكن للمرء أن يقول في منيف الرزاز؟ كيف يمكن للمرء أن يختزل واحدة من أغنى التجارب الانسانية العربية؟ هل نقول أنه كان من أبرز قادة حزب البعث في الأردن.. ثم أصبح أميناً عاماً للحزب في دمشق عام ١٩٦٥ (اي أول أمين عام في تاريخ الحزب بعد ميشيل عفلق) أم نقول أنه بات أميناً عاماً مساعداً للحزب الحاكم في العراق عام ١٩٧٧؟ وأنــه شــارك فــي الهيئات القيادية للمقاومة الفلسطينية؟

أم نبدأ بتضحياته فنذكر انه سجن في بلده حوالي أربع سنوات، وطالب المدعي العام فــي سورية بانزال حكم الاعدام به، أم انه حكم عليه وعلى زوجته وابنته بالاقامة الجبرية المؤبدة في بغداد... وكل ذلك لموقفه من الديمقراطية وتحيزه إليها.

لا.. لن نبدأ من ذكر المناصب التي احتلها، ولا السجون والمنافي التي عاش بها. ولنركز على منيف الرزاز الانسان.

كان منيف للرزاز مغرما بالأردن. وكانت وصيته الوحيدة وهو في الإقامة الجبرية فــي بغداد أن يدفن في ثرى الأردن حين يتوفاه الله.

وينبغي أن نعلم أنه كتب هذه الرسالة الطويلة لنا (نحن أولاده) وفي ذهنه أن يكتب سيرته الذاتية بأسلوبه الخاص. فبدأ بطفولته في دمشق وخواطره عن حماة وعينه على عمان. إلا أن يد المنون اختطفت روحه قبل أن تكتمل هذه الأوراق.

كان منيف الرزاز يكتب وعين الرقيب تترصد كل حركاته. وقد كتب هذه الرسالة وهــو يتوقع أن يصادرها الرقيب الذي زجه في الإقامة الجبرية. لذلك لا نجد فيها أثراً واضحاً للتحليل السياسي.

لقد عشق منيف الرزاز مدناً كثيرة. فقد عشق بيروت والقاهرة حيث درس. وعشق حماة حيث جذره وأصوله، وعشق دمشق مسقط رأسه، لكنه من بين كل هذه المدن شعر بعشق خاص متميز نحو عمان التي ترعرع فيها ولم يتركها منذ عام ١٩٢٦ إلا للدراسة في القاهرة وبيروت. ثم لقيادة الحزب في دمشق عام ١٩٦٥ لمدة عام واحد. ثم إلى بغداد ١٩٧٧- ١٩٨٤ عام وفاته.

كان منيف الرزاز يجمع بين الفكر والنضال. كتب أهم كتبه حول الديمقراطية وحقوق الانسان وضرورة التضحية عام ١٩٥٢، حيث فاز كتابه معالم الحياة العربية الجديدة بجائزة جامعة الدول العربية عام ١٩٥٣.

وفي السبعينات كتب فلسفة الحركة القومية بجزئيه، حيث نشر الجزءان الاول والثاني، وصودرت مخطوطة الجزء الثالث وهو في الاقامة الجبرية.

وقد حاول في هذين الكتابين الانفتاح على الفكر الماركسي من موقع قومي. إلا أن هاجس الرزاز المستمر والذي أدى إلى دفعه ثمناً باهظاً من حياته هو انحيازه لحقوق الانسان. فقد كانت حقوق الانسان بالنسبة إليه فوق الولاء للحزب وفوق أي شعار آخر.

كان منيف الرزاز طبيباً شعبياً وانساناً. يحب مرضاه فرداً فرداً ويقيم علاقات انسانية معهم. وكان صاحب نكته وروح دعابة متميزة وسرعة بداهة ولسان سليط وعناد صلب.

وكان يحب الطرب، وبخاصة تقليد أم كلثوم. يقول بعض رفاقه الذين رافقوه في السجون أنه كان يلجأ إلى غناء الأغاني القديمة لعبد الوهاب أو أم كلثوم كلما شعر بأن التوحشة أو الفتور أو الوهن قد بدأ يتسلل إلى نفوس بعض الرفاق.

وكان مولعاً بمطالعة الأدب. ولم يخف يوماً إعجابه بأسلوب طه حسين. حيث كان يقرأ مقاطع من كتاباته بصوت عذب جهوري. كما كان يحب أن يصغي للشيخ عبد الباسط عبد الصمد وهو يرتل الأيات الكريمة.

وكان يعشق جبل اللويبدة بشكل خاص حيث سكنه حوالي خمسين سنة.

ماذا يمكن للمرء أن يقول عن منيف الرزاز في هذه العجالة؟ هل يسرد بعض نكاته وقفشاته ودعاباته؟ هل نستذكر بعض أقواله أو مواقفه المتميزة؟

هذه المقدمة الموجزة تعجز عن استيعاب كل ذلك. فلقد كانت حياة هذا الرجل غنية ثرية. وقد يأتي اليوم الذي يواصل أحد أولاده أو رفاقه أو زوجته ما انقطع من سيرته الذاتية وخواطره التي وضعها في هذه الرسالة الطويلة التي هربت من الاقامة الجبرية تهريباً.

ولا شك في أن الاقامة الطويلة القسرية في منزل ما جعلته يرتد إلى ذكريات طفولته التي كان ينشد أن تكون مجرد مقدمة لسرد ذكريات حياته في الأردن، فحالت يد المنون بينه وبـــين انجاز هذا الهدف.

الباب الاول

رسائل إلى أولادي

أحمد منيف

أبنائي الأحبة

أبوكم هذا ولد في الساعات الأولى من صباح اليوم السابع عشر من الشهر الثاني عشر، من القرن العشرين. ودعوكم مما هو مذكور في جواز السفر، وتذكرة الميلاد، وورقة النفوس، من إنني ولدت في عام ١٩٢١. فالناس لم يكونوا دقيقين في تسجيلات أولادهم ذلك الحين. وأرجح الظن أن إحصاءً جرى في دمشق في ذلك العام. ولأن أبي سجلني من مواليد العام نفسه، ربما ليتفادى دفع غرامة تأخير التسجيل، وربما ليؤخر من تجنيدي سنتين لو جاء أوان التجنيد. فقد كان التجنيد شيئاً مخيفاً في تلك الأيام. رغم أن أبي وجدي (لأمي) كانا ضابطين كبيرين في الجيش.

ولدت بكر امي، وثالث أبناء أبي. فقد كان أبي متزوجاً ورزق بولدين، توفيت أمهما، ثم تزوج أبي، وكنت باكورة هذا الزواج.

جئت إلى هذا العالم طفلاً من بين ملايين من الاطفال ولدوا في ذلك العام. ما أنا؟ من أنا؟ ماذا سأكون؟ كان علم ذلك عند ربي، لا يعلمه إلا هو.

كانت مشكلة الاسم من أوائل المشاكل التي واجهت والدي. فقد كان اطلق على أخوي الكبيرين اسمي فؤاد ونهاد. وكان والدي ميالا الى الاستمرار في هذا الجناس. ولكن مراد ورشاد، وهما أول إسمين من نفس الوزن يخطران على البال، كانا إسمين لسلاطين عثمانيين. وكانت السلطة العثمانية قد جلت عن بلادنا، وكانت في النزع الاخير من حياتها، فلم يكن في تسميتي بأحدهما فأل حسن. فقرر، كما يبدو، البدء بسلسلة جناس جديد ينتمي بالحرفين

لم يكن فؤاد فحسب، بل محمد فؤاد، ونهاد كان علي نهاد، وأصبحت أنا أحمد منيف، ورئيف أصبح مصطفى رئيف، ولم ينج من هذه الأسماء المركبة غير أخينا الصغير فأصبح عفيفاً فحسب.

وللأسماء فلسفة، ولها عهود: مثل كل أمر آخر! فأسماء ناصر وجمال وخالد، مثلاً، كانت هي الأعم في فترة حكم عبد الناصر وذروة زعامته. ثم ما لبثت أن خبا وهجها بعد هزيمة ١٩٦٧. وبعيد عهد الاستقلال في سورية عام ١٩٣٦ اكتسحت سوق الأسماء فيها الأسماء الأموية، كمعاوية ومروان ويزيد وزياد وسفيان، وكانت مكروهة من قبل. وبدأت بالانحسار، بعد هزيمة الدولة العثمانية، الأسماء ذات الاشتقاق التركي، من أمثال حكمت ومدحت وشوقي وحقي وحمدي.

في عام ١٩٦٥ كنت، كما تعلمون، في الأقامة الجبرية في عمان. وقد أخترت منزلاً امكن فيه يصلح سكناً وعيادةً في نفس الوقت. طرق بابي ليلاً عراقي مار في عمان في طريقه الى القدس تصحبه زوجته وابنه. وقد لاحظ اثناء سفره ارتفاع درجة حرارة إبنه، وسأل عن طبيب قريب فدله بعضهم علي. سألته، كالعادة، عن اسم إبنه المريض، فقال: سرجون البرت إسماعيل)، فضحكت. وتساءل الأب عن سبب ضحكي فقلت: ما رأيت إسماً يلخص تاريخ العراق الحديث كهذا الإسم. قال: كيف؟. قلت: أما سرجون فواضح أنه ولد في فترة إحياء القوميات التي رعاها عبد الكريم قاسم. وأما ألبرت فقد ولد في فترة الأحتلال البريطاني. وأما إسماعيل فكان عثمانياً.

وحين كنت طالباً في الجامعة الأمريكية في بيروت كانت الموجة القومية العربية في ارتفاع، وفي صراع مع القومية السورية، والأقليمية اللبنانية الطائفية. فصرت موضة تغيير الأسماء بين رفاقنا المسيحيين الذين سماهم آباؤهم بأسماء غربية. فموريس اصبح اسعد، ونقولا اصبح نبيه، وجورج اصبح جميل. وقد كنا، بالمقابل، نعرف زعيم حزب الكتائب بإسم بطرس فلما كبرنا اذا به يصبح بيير. ولو طال الأحتلال البريطاني للبنان لربما أصبح بيتر.

كما نعرف أن مصطفى كمال باشا حين قرر أن يعلن عداءه للاسلام طرح إسم مصطفى من إسمه المركب، وسمى نفسه كمال اتاتورك. ولعله كان يتمنى أن يطرح إسم كمال كذلك (لأنه إسم عربي، وهو يكره العرب والأسلام معا)، وأن يتسمى بإسم تركي صرف كطوران أو ارطغرول او سبكتكين مثلاً!

أصبح إسمي الآن احمد منيف في الأوراق الرسمية، وإن اشتهرت بإسم منيف. ولم يعلـم والدي بما سوف يسببه هذا الأسم المركب من مشاكل، حين تكون بعض أوراقي بإسمي المركب وبعضها الأخر بإسم الشهرة. ويصر أهل البيروقراطية على ازالة التضارب، فأضطر الى رفـع الدعاوى لتصحيح الإسم.

ومع ذلك، فإن هذا الإسم المركب نفعني مرة واحدة. فقد كان منيف الرزاز ممنوعاً مـن دخول لبنان. ولكن احمد منيف الرزاز، وهو الإسم الذي على جواز السفر، لم يكـن ممنوعـاً. فدخلت ولم يعترضني احد.

ولو كان أصحاب المجلة الأسلامية؟- نسيت إسمها- التي تصدر في الكويت يعلمون هذا ما جرؤوا على الأدعاء بأنني منيف جورج الرزاز، كما زعموا في عدد من اعدادها، في عـام ١٩٧٩، لأثبات نظريتهم في أن الدعوة القومية عملية تهديم للأسلام يتولاها النـصارى! هـداهم الله، إن كان لهدايتهم من سبيل!

حارة الورد

كانت ولادتي، إذن، في دمشق، في حي عرنوس الذي يخترقه طريق الصالحية المؤدي الى الجسر الأبيض، ولكن يبدو أن الدار كانت ضيقة على الأسرة الكبيرة التي كانت تتكون من والدي وأخوي الكبيرين، وجدتي لأمي، وخادمة جدتي، وعمي. فانتقلت الأسرة الى دار أخرى في طريق الصالحية أيضاً، مقابل المستشفى العسكري العثماني تماماً، حيث قامت سينما أمبير فيما بعد.

ويبدو أن وجود هذا المستشفى أمام الدار مباشرة كان مسلاة لوالدي. فقد كان في إدارته زملاؤه وأصدقاؤه من الآستانة- أذكر منهم الدكتور عبد القادر زهرة، والدكتور عبد القادر سري- كما كان وجود الدار امام المستشفى مباشرة سبباً في انقاذ حياتي من الموت في المرة الأولى من المرات العديدة التي واجهت الموت فيها في حياتي. إذ يبدو، كما علمت من والدي فيما بعد، أنني تناولت من أرض المطبخ زجاجة من ماء القلي أي من محلول الصودا الكاوية، وشربت منها ما قدر الله لي أن أشرب، وكان من شأن هذه المادة ان تسبب لي حروقاً في البلعوم أو في المريء أو في المعدة. ولكن وجود المستشفى امام دارنا وإسعافي السريع، أنقذاني من موت سريع أو بطيء.

هذه الحادثة لم تنطبع في ذاكرتي، فقد كنت طفلاً صغيراً بعد. ولكن أمي التي حدثتني بها كانت قد وصلت، بإيمانها الغيبي الفطري البسيط، الى استنتاج أن لي عمراً. هل تذكر، يامؤنس، رسائلي الطويلة الأربع أو الخمس التي كتبتها لك وأنت في بريطانيا بعد أحداث ايلول ١٩٧٠ مباشرة والتي حدثتك في إحداها عن مواجهة الموت مواجهة مباشرة،

على جلدي، وما هي إلا ضغطة بسيطة على الزناد حتى أنتهي، ولولا حركة ذكية جريئة من الضابط المرافق له لكنت في عداد الشهداء؟ يومذاك، أيضاً، آمنت، إيماناً غيبياً فطرياً بسيطاً كإيمان امي، بأن لي عمراً.

هذا البيت لم نطل الأقامة فيه كذلك. إذ سرعان ما. بدلت الأحداث إدارة المستشفى وأطباءه والمرضى المترددين عليه من عرب، في فترة الحكم العربي الفيصلي، الى فرنسيين بعد الأحتلال، ولم يكن سهلاً على أسرة عربية مسلمة أن تسكن في مواجهة هؤلاء الكفار، كما كانت أمي تطلق عليهم، وهم يأتون ويروحون في عرباتهم المعروفة. فانتقلنا مجدداً الى دار في حارة الورد في حي سوق ساروجة القديم.

ولست ادري لماذا سمي هذا الحي بهذا الإسم العجيب- فلا بد أن له تاريخاً ما هو، على اية حال، حي من أحياء دمشق القديمة، وليس عريقاً في القدم. فهو خارج سور دمشق. وسكانه لا تجمعهم نوعية الروابط التي تجمع سكان الأحياء العريقة في القدم، كالشاغور، والميدان، وباب توما، والقيمرية وما أشكال ذلك.

وحارة الورد في هذا الحي حارة طويلة نصفها الأول مكشوف الى السماء، ونصفها الثاني مسقوف. أرضه مرصوفة بحجارة محدودبة، كمعظم الحارات القديمة، وكان بيتنا يقع في النصف الثاني المسقوف من الحارة. وكان بيتاً من بيوت الشام القديمة الرائعة. مظهره من الخارج متواضع جداً لا يدل على ما في داخله من جمال. ندخل اليه من بوابة كبيرة تسمح للعربات والخيل بالدخول اذا فتحت على مصراعيها، يسمونها الخوخة، ما أظنها فتحت الا يوم سكنا البيت ويوم غادرناه. يتوسط أحد مصراعيه باب أصغر هو الذي يستعمل عادةً للخروج والدخول اليومي. فإذا انطلقت من هذا الباب الى الداخل فادك ممر عريض مسقوف ذو مدودين مبنيين على جانبيه الى فناء واسع جداً، يسمونه في الشام ارض ديار، يجري فيه جدول ماء صاف رقراق الى بركتين، صغيرة، فكبيرة، ويملأ الفناء أشجار البرتقال والكباد والنارنج، وأحواض الورد والزهر. ويتصدر الفناء ايوان تصل اليه من جانبه ببضع درجات، يفضي الى غرفة ذات اليمين، وغرفة ذات الشمال، تعلوهما غرفتان في الطابق الثاني، وتلاصقهما غرف في الطابق الأول يدخل اليها من الفناء مباشرة. وكانت سقوف بعض هذه الغرف مزخرفة بتلك الزخرفة الدمشقية الجميلة الرائعة المحفورة على الخشب والجبص. ولم يكن للبيت نوافذ تفتح على خارج الدار، باستثناء طاقات صغيرة عالية ينفذ منها النور والهواء، دون ان تنفذ منها عيون الناس الى الجيران، أو بالعكس.

هذا البيت، من بين البيوت الستة التي سكناها في دمشق في ثماني سنوات، ظل عزيزاً على قلبي، وظلت ذكراه محفورة في ذاكرتي، وما زلت أحن الى رؤيته، إن كان ما يزال قائماً، وآسف على أنني لم أحاول زيارته حين سكنت الشام مرة اخرى وأنا أمين عام[١]،

---

[١] المقصود: أمين عام لحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا.

لأنتشي بالذكرى، ولأقارن بين صورة الذاكرة البعيدة والصورة الحقيقية. وأخشى أن يكون قد زال من الوجود، وحلت محله عمارات حديثة بشعة. فالبساتين التي كانت تلي حارة الورد تحولت الى مساكن حديثة في حي ما زال يحمل اسم البساتين القديمة، زقاق الصخر، سكنها، من جملة من سكنها، لخواي الكبيران فؤاد ونهاد.

مثل هذه البيوت كانت عوالم قائمة بذاتها، مستجيبة للظروف الاجتماعية وللظروف البيئية في نفس الوقت. فيها الستر المطلوب بشدة في ذلك الزمان، دون ان يكون هذا الستر سبباً في الحرمان من محاسن الطبيعة. فالطبيعة فيها منقولة الى داخل الدار. فيها الماء الجاري وفيها الشجر والزهر والطير. وفيها الهواء والشمس والظل وملعب الأطفال. وكان ممكناً أن يضاف للبيت حجرات جديدة في طابقه الأول أو الثاني كلما تزوج ولد من أولاد صاحب الدار واتسعت الأسرة. فقد كان عيباً أن ينفصل الإبن عن أبيه إذا ما تزوج.

ما أظن أن مثل هذه البيوت تتلاءم مع الظروف الاجتماعية والبيئية الجديدة. لقد فرغ معظمها من أصحابها حتى من قبل ان تهدم. ولما ارتفعت قيم الأراضي والأيجارات والبيوت، امتدت اليها يد التحديث تهدمها لتقيم في مكانها عمارات سكنية بشعة وإن كانت أكثر انطباقاً وظيفياً على مستلزمات الحياة واحتياجات الناس في هذا العصر. وكم أعجبتني، من هذه الناحية، ادارات مدن كفاس في المغرب ومدينة الجزائر في الجزائر حيث تركت المدن القديمة، القصبات، على حالها، معلماً من معالم التاريخ، وامتد العمران الحديث من حولها فنشأت بذلك مدينتان متجاورتان متلاصقتان، إحداهما المدينة القديمة، برغم كل صعوبات الحياة الحديثة فيها، وثانيهما المدينة الجديدة، بل إن المحاولات قائمة، حتى في بناء المدينة الجديدة، للحفاظ على طراز البناء القديم. ففي زيارتنا، عام ٦٥، للمغرب، دخلنا بيت عامل المدينة في كل من طنجة وتطوان وفاس. فإذا بها دور حديثة، ولكن مبنية على الطراز القديم، القريب من طراز البناء في دمشق، لولا أنه خال من الليوان، ومن الماء الجاري في صحن الدار، ولكن هناك الفناء، المربع او المستطيل، تحيط به غرف الدار من الجهات الاربع، مفصولة عن الفناء برواق معقوف يصل بين الغرف جميعاً، وكل ذلك في زخرفة مغربية رائعة تأخذ بمجامع القلوب.

وأشهد أن بلدان المغرب اكثر عناية بالحفاظ على التراث، لا المعماري فحسب، بل والموسيقي واللباس والفولكلور والطعام وآداب الطعام، من المشرق. وانني لأعجب كيف تحافظ غرناطة وقرطبة، وهما مدينتان جلا عنهما العرب منذ مئات السنين، على طابعهما العربي الاندلسي، وتفقد مدن عربية اصيلة- عمرها يمتد الى آلاف السنين ومئاتها- طابعها المميز.

في هذا البيت أطلنا الأقامة نسبياً. فيه بدأ وعيي يتكون. ولذا الآن لا أكاد أنكر أمراً

حصل لي قبله، باستثناء سفر جدتي، وفيه التحقت بالمدرسة رغم أنني لم اكن قد تجاوزت الثالثة من عمري. وفيه بدأت صلاتي وصومي. وفيه واجهت الوجود الأستعماري الفرنـــسي المباشـــر ووحشيته للمرة الاولى.

ولكن ما دام الوعي قد بدأ عندي في هذا البيت، فلنقف قليلا هنا لنرجع الى ما قبل الوعي من أب وأم وأسرة وأصل وفصل، لعل الوراثة والبيئة الطفولية تنير لنا مصير هذا الوليد، أو لعل المصير يستنير ببعض الضوء الذي تلقيانه على الجذور.

روابط انسانية

كانت الولادة، إذن، في دمشق. لكنني، مع ذلك، لم أكن دمشقياً. ففي هذه المدن القديمة لا يكتسب الإنسان حق الإنتساب إجتماعياً اليها، الا اذا انتسب الى أسرة من أسرها المرتبطة بها منذ احقاب.

نحن، اذن، لم نكن دمشقيين، بل كنا حمويين يسكنون دمشق. رغم أنني لم اعش في حماة البتة، بل رغم أن والدي نفسه لم يعش فيها الا السنوات الاربع عشرة الاولى من حياته. ومع ذلك فلم يكن لنا في دمشق روابط عائلية. بينما كنا، في حماة، حمويين متشابكي الأطراف والجذور والفروع. هكذا كانت تقسيمات المجتمع القديم، الذي نطلق عليه اسم المجتمع المتخلف، والتي ما تزال، رغم كل المستحدثات الأيديولوجية والمادية في حياتنا، ما تزال تلاحقنا، كما قد نرى بعد حين.

فعائلتنا، الرزاز، عائلة صغيرة لأنها حديثة اللقب، ليس فيها غير أسرة جدي وأسرة اخي جدي. وذلك لان هذا اللقب انما اطلق على جد ابي الذي كان تاجراً يسافر ما بين مصر والشام والعراق، ويستورد الرز، فالتصق به اسم الرزاز رغم انه كان ينتمي الى عائلة الملقي اي حائك الصايات الحموية الشهيرة.

هذه العائلة الصغيرة، التي لم يبق منها فيما اعتقد غير نسل جدي، لأن خيط نسل اخيه قد انقطع، واسعة صلات النسب والمصاهرة والقرابة. وحين كنت أزور حماة، رغم اني لم اعش فيها، كنت اشعر بأن لي جذوراً. فصلات العائلة تمتد وتتشعب لتتصل بعائلات الملقي والزعيم والشيخ خالد والمشنوق والبرك والبارودي والدريعي والعاشق والخيمي بشكل من أشكال المصاهرة، قريبة او بعيدة. وهو شعور لم أكن أشعر بمثله في دمشق.

حس الانتماء، والالتصاق بالارض وبالمجتمع، ويبعث حس الطمأنينة، وحساً بالقوة والعزة والمنعة، وحس توفر مرسى يلجأ اليه الانسان، ولو نفسيا، اذا ادلهمت الدنيا، وتوالت الخطوب.

ولأنني عشت دائماً بعيداً عن حماة، ولم تزد صلتي بها وبأقربائي فيها على زيارات متباعدة قصيرة الامد، فقد عشت حياتي، في الواقع مقطوع الجذور.

بل هناك ما هو اكثر من ذلك، فأنا، في الحقيقة، لم أنفصل عن جذوري في حماة فقط، بل انفصلت عملياً عن اسرتي المباشرة، عن أبي وأمي وأخوتي، منذ بلغت الخامسة عشرة من عمري، وأصبحت كما يقول عمرو بن معدي كرب، مثل السيف فرداً.

واصارحكم، يا احبائي، بأنني لم اعر هذه الناحية من حياتي كبير اهتمام. فقد كان لي في الصداقات والعلاقات الكثيرة الحميمة التي أنشأتها حيثما عشت في الوطن العربي تعويض عن هذا النقص الذي لم اشعر بوجوده فعلياً الا متأخراً جداً.

ساعدني على هذا التعويض اهتماماتي الكثيرة في الحياة، وانشغالاتي في ميادين النشاط المختلفة، ثم، أيديولوجيتي المعارضة لكل الروابط التجزيئية التخلفية، كالعائلية والعشائرية، والطائفية، والعنصرية والاقليمية، والمؤمنة بالرابطة الجامعة الواسعة الموحدة، رابطة القومية العربية. التي تجب هذه الروابط الصغيرة كلها.

ولكن، حين انحسرت الصداقات والعلاقات، وانحسرت الاهتمامات والنشاطات، وانحسر المد القومي المناضل في السبعينات، وبخاصة بعد ايلول ١٩٧٠، وأحييت كل الروابط التجزيئية في الوطن العربي كما لم تحي حتى في أشد عصور التخلف، وأصبحت العشائرية والطائفية والأقليمية سيدة الموقف، لا ضمن الحركات التخلفية الرجعية فحسب، بل ضمن الحركات التقدمية الثورية نفسها، أحسست بانقطاع الجذور كما لم أحس من قبل أبداً.

لم آسى لهذا الانقطاع. فقد كنت محصناً ضد اي انحراف تجزيئي محتمل. ولكن يجب أن أعترف بأنني شعرت بفراغ رهيب يحيط بي من كل جانب. تمسكت بما أنا مؤمن به. بل ازداد ايماني بما أنا مؤمن به. لكنني أحسست، كأني وحيد في هذا الايمان، لا أنيس يؤنسني فيه، ولا نصير. طبعاً لم أكن وحيداً. فمثلي في الوطن العربي ألوف. ولكن الساحة لم تكن لنا، كانت للتجزيئيين مهما يكن لونهم وانتماؤهم.

أنت نفسك، يا مؤنس، أحسست معي بهذا الضياع. ولطالما سألتني عن آل الرزاز كم يبلغ عددهم. فتحس بالحسرة والضعف حين أجيبك ضاحكاً أن عشيرة الرزازة في الأردن تتكون من ثلاثة هم أنا وأنت وأخوك، وأن عشيرة الرزازة كلها لا تتجاوز أحفاد جدي

من أولاده الثلاثة، فلا تجد التعويض إلا حين تشعر بأن أمك تنتمي الى عائلة كبيرة منتشرة من غزة في كل أنحاء الوطن العربي، وأنها تعد بالمئات او بالألوف فيداخلك بعض الاطمئنان وتبدأ تهتم بأخبار مهدي وصخر ومعين وغيرهم من المناضلين من أخوالك آل بسيسو.

والحقيقة هي أن الروابط الإنسانية الصغيرة، التجزيئية، كما نسميها، ليست بالبساطة التي أخذتها بها أول عمري. إن تقدم الحياة التكنولوجية من جهة، والأيديولوجيات التقدمية من جهة، تعتبرها عقبة لا يجوز أن تقف أمام التقدم.

إن الفردية المطلقة، بعيداً عن كل الروابط الإنسانية، قاعدة أساسية من قواعد العصر الصناعي المتقدم، وصفة ملازمة له، تحولت الى فلسفة ودعوة على أيدي بنتهام وجون ستيوارت مل، الناطقين بأسم الحياة البرجوازية الليبرالية. وما نراه اليوم، في البلدان المتقدمة صناعياً من انحلال الأسرة، وثورة الأجيال، وتفكك الروابط الإنسانية، نتيجة طبيعية للتقدم الصناعي وللثورة التكنولوجية، وهو ليس خاصاً بالأنظمة الرأسمالية وحدها، بل هو موجود في الأنظمة الاشتراكية نفسها. رغم معارضتها النظرية للفردية، وايمانها بالجماعية.

من ناحية أخرى، فإن الأيديولوجيات التقدمية درجت على محاربة الروابط التجزيئية، مهما يكن لونها وصنفها، لأنها، أولا، ميراث من مواريث التخلف الاقطاعي القديم، وعقبة في طريق احلال الروابط المجتمعية الكبرى. ولأنها، فوق ذلك، ارتبطت وترتبط بالاستئثار في الحكم والسلطان، وبالمحسوبية والفساد، وبحلول التعصب لها محل العقل المتفتح، والرأي التقدمي. وها نحن، أي أمتنا العربية، نمر في هذه الأيام، في ثمانينات هذا القرن، بمرحلة من أسوأ مراحل التجزئة القطرية والطائفية والعنصرية والفئوية والجهوية والعشائرية، بحيث لم تبق رابطة اقطاعية تخلفية إلا أحييت كأسوأ ما يكون الأحياء.

على أنني في غمرة رفضي الايديولوجي المطلق لهذه الروابط التجزيئية، لا أنسى، أولاً، أنها واقع لا سبيل الى إلغائه، بل لا بد من التعامل معه، وثانياً، إن مثل هذه الروابط بدل أن تكون عقبة في طريق الروابط الاوسع، يمكن، لما تتضمنه من حرارة انسانية دافئة ومدفئة، ولما يمكن أن تبعثه من ثقة وطمأنينة وراحة نفسية وإحساس بالقوة والثبات والرسوخ في الارض، يمكن أن تكون مصدر قوة للعقيدة الجامعة وللرابطة الواسعة، بدل أن تكون مصدر ضعف لها.

إنها قد تكون منبعاً ثراً من منابع الحب، فتكون مصدر قوة، وقد تكون محوراً لتعصب ضيق بغيض، فتكون مصدر انحلال وتفكك. ووقائع الحياة لا تمنحنا نفسها شراً كلها أو خيراً كلها، وانما تمنحنا، كذلك، القدرة والارادة على أن نجعل منها هذا أو ذاك.

ومن هنا كان اصراري، في فلسفة الحركة القومية العربية، على تنمية القيم الإنسانية والروابط الإنسانية والمحبة الإنسانية، جنباً الى جنب مع التنمية التكنولوجية والعلمية والمادية.

قد يكون وراء الثورات الشبابية في الغرب ضد مؤسسات الأنظمة القائمة أسباب كثيرة. ولكن انعدام القيم الإنسانية والروابط الإنسانية والمحبة الإنسانية يأتي على رأس هذه الاسباب،

فهل نحن مجبرون، اذا ما حققنا تقدماً تكنولوجياً، أن نمر في مرحلة من انعدام هذا كله، ثـــم أن نثور عليه. فنعيد بالحرف الواحد تاريخ التطور التكنولوجي الغربي، أم أن بإمكاننا أن نتجـــاوز تلك الأزمة بالتحسب لها من قبل أن تقوم؟

إن في اليابان لتجربة تستحق أن تدرس بعمق، وأن تتفهم، وأن يتعلم منها الشيء الكثير.

الجذور

ولكن، ما لنا ولليابان الآن؟ فلنعد الى ما كنا فيه، ولنقل، اذن، إن لــي ولعــائلتي جــذوراً عميقة في حماة، لكنني عشت حياتي مقطوع الجذور. ورغم ذلك فلم يؤرقني، في يوم من الأيام، الى ما بعد السبعين، انقطاعي عن جذوري الأسروية هذه.

إن زياراتي القليلة المتباعدة الى حماة التي كانت حبيبة الى نفسي، تغمرني بنــشوة خاصــة لا أشعر بمثلها في زيارتي لأية مدينة أخرى، ولم يكن مرد هذه النشوة الى جمال المدينة نفسها رغم جمالها، ولا الى طيبة قلب اهلها رغم طيبة قلوبهم الكبيرة، ولا الى صداقة تجمعني الى أقربائي وأنسبائي، فقد كنت أتعرف الى معظمهم للمرة الأولى، ولكنه شعور العودة الى الجــذور. وهــو شعور لا يكاد يحس به، بمثل هذه القوة، الا من اعتاد ان يعيش بعيداً عن جذوره. شعور أحس به متقداً متضوعاً مستفيضاً عند أمكم حين تتحدث عن غزة التي لم تعش فيها أكثر مما عشت أنا في حماة، ولم تزرها أكثر مما زرت أنا حماة، لكنها حين تتحدث الشط في غــزة يخيــل الــى السامع أنها تتحدث عن شط من شطآن الجنة، وحين تتحدث عن رمل غزة فهي تتحدث عن رمل لا مثيل له في العالم،وحين تتحدث عن فلان وفلانة من اقربائها وقريباتها هناك، فكأنها تتحــدث عن حلم جميل رائع، وعن ناس لا كالناس بل كالملائكة.

فنحن الذين عشنا بعيدين عن جذورنا، مستقلين بذواتنا، نحس بهذا الحنين الى الجذور كما لا يمكن أن يحس به من عاش مع جذوره، بل لعل الذي عاش معها أن يحس بالضيق من هــذا الارتباط الذي لا يكاد يترك له فرصة للانفراد بذاته، والضيق بهذا الضغط المتواصل عليه مــن أقربائه وأنسبائه وأصهاره وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته. ولعلنا، نحن، البعيدين عن جذورنا، نخلع على هذه الجذور لوناً من الرومانــسية ليــست مــن طبيعتهــا، بقــدر مــا هــي فينــا

نحن، في حنيننا لأن يكون لنا جذور.

ورغم ذلك، وقبل أن نمضي طويلاً في موضوع الجذور هذا، لا أريدكم أن تتصوروا أن حرماني من هذه الجذور قد سيطر على حياتي أو على فكري، أو أنه شغلني في كثير أو قليل. وأكرر القول أن الصداقات والعلاقات التي بنيتها طيلة حياتي، وطبيعة عمان بالذات، التي لا جذور فيها لاحد من سكانها، إلا خارجها، والحب الذي احببته للأردن، والحب الذي حباني به الأردن، وايديولوجية البعث القومية التقدمية التي آمنت بها، كل ذلك كان فيه تعويض كامل لإنقطاع الجذور، وكان فيه ما يدفعني دوماً لغرس جذور جديدة في الأرض التي احببت، والمدينة التي ارتبطت بها حياتي كلها، فكانت أسرتي الصغيرة، وكنتم أنتم، وكان أحفادي نتاج هذه الجذور، وكانت صداقاتي وعلاقاتي وتضحياتي ونضالي وحبي والحب الذي أحطت به، حتى ممن جعلتهم الحياة خصومي، هي جنى هذا الغرس الجديد.

ومع ذلك، ورغم أنني مواطن عادي، أحمل في نفسي التناقضات والنوازع التي يحملها كل إنسان، فأنا، أيضاً، مناضل سياسي. والانقطاع عن الجذور، في الحياة السياسية، وبخاصة في البلدان المتخلفة، أمر يترك أثره على المناضل، شاء ذلك أم أبى.

وهو يترك أثره من ناحيتين على الاقل. أولاهما أن المنقطعة جذورهم، أو المنقطعين عن جذورهم بالأحرى، أكثر استعداداً للتجذر، أي لتبني المواقف الجذرية من الموصولة جذورهم. ألستم ترون الى الفلاح الذي ينتقل الى المدينة كيف تصبح قابلية تطويره وتطوير أبنائه أكثر سهولة من أخيه الذي يبقى في قريته؟ ثم ألستم ترون كيف أن الفلسطينيين الموزعين في أنحاء الوطن العربي وفي أنحاء العالم هم أكثر العرب تجذراً وراديكالية، لا لأنهم مختلفون عن بقية العرب في طبائعهم، ولكن لأنهم نبتة خلعت من ارضها وتربتها، لتغرس وتنبت في تربة أخرى، ففقدوا بذلك قوة من قوى الجذب الى وراء، فأصبح الأندفاع الى أمام أكثر سهولة لديهم!

أما ثانية هذه الآثار- ولنعترف بهذه الحقيقة، ولو تكن مرة، ثم ولو لم اكتشفها في حياتي الا متأخراً- فهي أن المنقطع عن جذوره، في بلداننا المتخلفة بخاصة، اكثر تعرضاً للفشل وللأخفاق من الموصولة جذوره. فالجذر قوة. وهو عزوة وعصبية، اكتشف ابن خلدون سرها منذ قرن، ولمسناها في حياتنا المعاصرة، حتى في الأحزاب والحركات التقدمية الرافضة للروابط العشائرية رفضاً تاماً. فالعصبية قد لا تكون من ضمن الأيديولوجية، لأن الأيديولوجية التقدمية تريد أن تحل عصبيتها هي محل العصبيات التخلفية الأخرى، ولكنها واقع موجود، وقانون موضوعي من قوانين الثورات بعامة، مهما يكن لونها، ومهما تكن أيديولوجيتها.

وأصارحكم أنني، بعد السبعين، تمنيت كثيراً لو أن قيادة الحزب في الأردن كانت بيد أردنيين موصولي الجذور في الأردن نفسها.

إن هذا يبدو مناقضاً لكل ما نؤمن ونبشر به. ولكننا نؤمن ونبشر بمستقبل لم يأت بعد. ونناضل في بحر الحاضر الذي يحيط بنا من كل جانب. نناضل ضد التيار. تلك حقيقة. ولكنها حقيقة تجعل النضال صعباً، والنجاح فيه أصعب.

ومع ذلك، فلا يجوز أن نستسلم لحقائق الحياة التخلفية، وإلا فقدنا مبرر ثوريتنا. ألا ترون الى البعث في سوريا كيف أمسى حين اتخذ الطائفية العشائرية الضيقة مطية؟

العنزة السوداء

حماة بلدة جميلة، يخترقها نهر العاصي من وسطها، فيقسمها حيين، هما المدينة والحاضر. وحين يأتي الربيع تنعم حماة بجو معتدل رائع، وبخضرة تحيط بها من كل جانب، وبوفرة في منتجات الألبان واللحوم والخضار والفواكه قد لاتنعم بمثل وفرتها مدينة سورية أخرى.

نواعيرها مصدر إلهام دائم بالجمال. لا لأنها أكبر النواعير الموجودة فحسب، ولا لأنها في وسط المدينة فحسب، ولكن، أيضاً، لأن أنينها المستمر، الذي يؤلف جملاً موسيقية ذات إيقاع ونغم، يضيف لجمالها جمالاً يتجاوز بهجة النظر، بل يتجاوز لذة السمع، ليصل الى أعماق القلب، يستثيرها بموسيقاه الهادئة الحزينة، ويبعث في الإنسان نشوة طروباً بلمح من الاسى والحنين. فنواعير حماة ليست شيئاً جامداً، وليست مجرد دوائر من خشب تتحرك. وإنما تشعر، حين تنظر اليها وتستمع الى أنينها، أنها تخاطبك. تخاطب قلبك وشعورك وأحاسيسك جميعاً، لتستثيرها استثارة ناعمة هادئة وادعة.

أنا أردد دائماً أن ثمة منظرين لا يمل الانسان من النظر اليهما، لأنهما حركة مستمرة لا تستقر، وحركة، وإن كررت نفسها، تشعرك وكأنها، في كل ثانية، تبدع حركة جديدة مختلفة عما سبقها وعما سيلحقها، هما البحر ونار الموقدة. ولكن لا ريب عندي بأن نواعير حماة هي ثالثة هذين المنظرين.

وحماة بلد محافظة، محافظة بناء وعادات وتقاليد. في العشرينات والثلاثينات لا أذكر أنني رأيت فيها فرناً. لأن بيوتها جميعاً تحوي التنور والحاصل، أي مجمع المؤونة. ولا أظن أنه كان في فندق أو مطعم. إذ من العيب أن يأتيها ضيف، ولو كان عابر سبيل، فلا يستضاف في بيت ما.

في منتصف الثلاثينات، بعد عقد معاهدة الأستقلال التي لم يتح لها الأبرام، والتي كان لتضحيات حماة أثر كبير في عقدها، قرر رجالات حماة أن يبعثوا الحياة في المدينة، وأن يحركوا اقتصادها الرتيب الفقير، فخططوا فيها عيداً للربيع حشدوا له كل امكاناتهم، ليستقدموا الغريب وينافسوا خميس المشايخ الذي يقام في حمص. ونجح العيد نجاحاً باهراً. وتدفق الألوف من المشاهدين من جميع أنحاء البلاد اليها. ولكن هذا العيد لم يمتد إلا إلى سنوات معدودات. فقد كانت بذور إخفاقه تكمن في نجاحه، فقد تحولت دور حماة كلها الى مضافات للزوار، وينعم فيها هؤلاء بالنوم والطعام الذي يليق بكرم أهل حماة. وبدلاً من أن يكون هذا العيد نعمة على اقتصاد أهل حماة تحول، بسبب خلقهم المتصل بخلق البداوة أوثق اتصال، الى نقمة. فما لبث أهل حماة ان اغتنموا فرصة عودة الفرنسيين عن الاستقلال الذي وقعوا معاهدته، فتخلصوا من العيد ومما حملهم إياه العيد من غرم مادي لم يكن لهم قبل به ولا طاقة عليه!

وهي محافظة حتى في تخطيطها. لم يكد يتغير من صورتها القديمة شيء. سوق المدينة الطويل المسقوف الذي يخترقها من جانب الى جانب، والذي تتفرع منه أزقة ضيقة وحوار تصل الى أحياء السكن المختلفة، ما زال هو هو. وهي محافظة بعاداتها وتقاليدها، بل ولباسها، معظم حماماتها قائمة وعاملة. وكذلك مضافاتها- التي يطلقون عليها اسمها التركي، قوناق ويلفظونها إيناء- ما تزال قائمة وعاملة حين زالت هي ووظائفها في معظم مدن سورية الاخرى. حتى اللباس، القنباز، ظل اللباس الأكثر شيوعاً في حماة. وحتى حين يضطر الحموي للبس البدلة فهو سرعان ما يخلعها ويرجع الى قنبازه إذا زالت الاسباب الموجبة للبسها. كان عمي خياطاً افرنجياً. ولم يكن من المعقول أن يمارس عمله في تفصيل البدلات وخياطتها ولا يلبسها هو نفسه. لكنه، حين ينتهي من عمله في المساء، يعود الى الدار، ويخلع بدلته، ويلبس القنباز، ثم يخرج الى مقهاه المفضل مقابل الناعورة.

وهي محافظة في الدين، ولعلها آخر مدينة في سورية طبق فيها السفور. كتب عنها مرة الدكتور سعيد عبده- وكان أستاذ الصحة العامة في كلية الطب في قصر العيني، وكاتباً صحفياً محبباً معروفاً- ووصفها بأنها مدينة الغربان السود لأنه لم ير نساءها إلا متشحات بالملاءة السوداء تغطيهن من رؤوسهن الى أخمص أقدامهن. وإذا أذن لصلاة الجمعة فأنت لا تجد فيها من يمر في الشارع. حتى الذين لا يصلون، يلجأون الى دورهم، يتسترون فيها حتى تنقضي الصلاة.

لا أظن أن في سورية كلها مدينة محافظة كحماة. ولا أظن، مع ذلك، أن في سورية كلها مدينة ثورية كحماة، راديكالية كحماة، ذات عزة وكرامة كحماة.

قامت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، ودامت سنوات ثلاثاً، تقارع الاستعمار ويقارعها، وعمت جنوب القطر السوري، جبل الدروز وحوران والجولان ودمشق. وكانت حماة المدينة الشمالية الوحيدة التي انضمت للثورة، بقيادة البطل الشهيد سعيد العاص.

في ثورة ١٩٣٦، التي انتهت بمعاهدة الاستقلال، كانت حماة في الطليعة مع دمشق وفي ثورة ١٩٤٥، التي انتهت بالجلاء، كانت، أيضاً، حماة في الطليعة مع دمشق ولم تقتصر ثوراتها على الفرنسيين، بل ثارت ضد أي طغيان، من اليمين جاء أم من اليسار.

وقد يبدو غريباً أن تكون حماة المحافظة هذه مهد الثورة الاجتماعية الراديكالية في سورية. قد تكون حمص، مثلاً، أنتجت عدداً أكبر مما أنتجت حماة من المفكرين والكتاب الراديكاليين. ولكن حماة هي التي ولدت فيها، ونجحت نجاحاً ساحقاً، أول حركة اشتراكية موجهة ضد الأقطاع، وضد الأفندية الذين يملكون حماة وقراها ويتحكمون فيها. فمنذ الثلاثينات تميزت حماة بحركة شعبية وطنية ذات اتجاهات معادية للاقطاع تولى زعامتها صالح قنباز وتوفيق الشيشكلي، تبعتها حركة الشباب بزعامة اكرم الحوراني ورئيف الملقي، وبقيت حماة، دائماً، العنزة السوداء في القطيع السوري.

في عام ١٩٥٨ كنا في سجن عمان، مجموعة من البعثيين والضباط الأحرار. وكنا نتبادل النقاش في السياسة السورية في الوحدة، بعد أن ظهرت نذر الخلاف البعثي الناصري. وحين اشتد وطيس النقاش، وكان معنا صحفي سوري من حلب متهم بالتجسس لحساب سورية، ما كان من هذا الصحفي إلا أن قال: أنتم تتنازعون فيما ليس له في سورية وجود. أنتم تتحدثون عن أحزاب. ولكن سورية ليس فيها أحزاب، إن فيها حموية يتنازعون فيما بينهم، فيها أديب الشيشكلي- الذي كان قد لجأ الى البرازيل- ومصطفى حمدون- الذي قاد الانقلاب عليه- وفيها عبد الحميد السراج- المسؤول عن المخابرات الناصرية- واكرم الحوراني- أكبر ممثل للبعث في دولة الوحدة- وبينهم جميعاً صراعات. هي ملخص السياسة السورية.

لا ريب في أن قول هذا الصحفي مبالغة ضخمة، وتبسيطاً مخلاً بالحقيقة. ولكن لا ريب، أيضاً، في أن في ما قاله إشارة الى حقيقة هامة في السياسة السورية، هي أن حماة كان لها، دائماً، ضلع ومشاركة ضخمة في كل حدث سياسي مهم، وكل حركة راديكالية (ما عدا الشيوعية والقومية السورية، اللتين لم تجدا لهما تربة خصبة فيها).

تشابه عجيب

اكاد اجزم بأن لكل مدينة في وطننا العربي الواسع طبيعة تميزها وتميز سكانها، نفسياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً، عن كل مدينة أخرى، بل إن لكل حي. في المدن القديمة، طبيعته المتميزة، الخاصة، لا سيما قبل انتشار التعليم والأعلام وأثرهما في توحيد هذه الطبائع، فأهل الميدان، في دمشق، غير أهل سوق ساروجة، غير أهل الشاغور. وأهل الحاضر في حماة غير أهل المدينة. ثم ان أهل حماة غير أهل حمص. وأهل القدس غير أهل نابلس، برغم قرب المسافة بين كل منهما، وقياساً على ذلك، فأنني اجزم بأن العراقيين غير المصريين، غير الجزائريين، غير اليمنيين.

والأيمان بهذا التمايز، عندي، لا يقدم ولا يؤخر في إيماني بوحدة الأمة العربية. فالايمان بهذه الوحدة لا يستتبع الايمان بأن كل عربي هو نسخة عن كل عربي آخر، ولا الايمان بأن كل مدينة هي نسخة عن كل مدينة أخرى، ولا الايمان بأن كل قطر هو نسخة عن كل قطر آخر. فبالاضافة الى أن هذا التمايز موجود في كل أمة، فأنا أومن بأن التنوع و التعدد في الامة، يصبح مصدر قوة لها، ونبع ابداع، وسببا قوياً من أسباب الوحدة، حين يوجه توجيهاً سليماً، وحين يجري في قنوات تاريخية بناءة، وحين يخلو من العصبيات الضيقة الهدامة.

ويكون إيماني هذا أقوى حين أذكر أن إيماني بتعددية الروابط الإنسانية وتداخلها، وإنكاري لأحادية الروابط والعلل والأسباب التاريخية، يعصمني من الضياع في وسط العصبيات الضيقة. فأنا مثلما أجزم بوجود التمايز بين الأحياء والمدن والاقطار، أجزم بأن هذا التمايز تقطعه وتتجاوزه وتتداخل معه تمايزات وروابط أخرى غير جغرافية، كالتمايز البدوي الحضري، والتمايز الطبقي، والتمايز العنصري، والتمايز الطائفي، والتمايز الثقافي. فبين البدوي في الجزائر مثلاً، والبدوي في لبنان أو ليبيا أو نجد، من التواصل والروابط أكثر مما

بين البدوي والحضري في نفس الاقليم، وبين البورجوازية المصرية واللبنانية والأردنيــة مــن المصالح المشتركة والاتجاهات المتوازية أكثر مما بينها وبين الطبقة العاملة من نفس الاقليم.

فاذا كان ذلك كذلك، فلا ضير في إيماني بأن لحماة، ولأهل حماة، ميزات خاصة قد تكون نابعة من اتصالها العميق بالبداوة من جهة، وبالريف الزراعي من جهة أخرى، وقد تكون، مــع مرور القرون، شيئا موروثا. من يدري؟

إن في أهل حماة خشونة وصلابة وعناداً. وإن في أهلها دعة وبساطة وطيبة وكرمــاً. ولا يخطرن في بالكم أن في هذا تناقضاً. فالحموي النموذجي وادع وبسيط وطيب وكريم. ولكن إياك أن تدوس على قدمه، فإنه سرعان ما ينقلب الى رجل خشن صلب عنيف عنيد. ألا ترون أن هذه جميعاً هي صفات القبضاي في بلادنا؟ ثم ألا ترون التشابه العجيب بين طباع أهل حماة، وطباع أهل السلط في الاردن؟ لا عجب، بعد ذلك، أن يجد مؤنس في نفسه ذلك الارتباط الذي أعرفه فيه بالسلط، رغم أن كل ما يربطه بها هو أنه ولد في مستشفاها.

هذه الطباع لا بد أن بعضها على الاقل قد إنتقل الى أبي. وليس مستبعداً أن يكون بعضها انتقل الي. وهل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول أن بعضها انتقل إليكم كذلك؟

المفروض، في علم الوراثة، أن الطبائع المكتسبة لا تورث، ولكن معروف أيــضاً، فــي نظرية التطور أنه ثمة عاملاً او اكثر من عامل، يجعل الحي متلائماً مع بيئته. هذا العامل فــي رأي داروين، هو الصراع على البقاء وبقاء الأقوى، أي بقاء الأكثر تلاؤماً مع بيئته. وهو، فــي رأي التطوريين الحديثين، التغيرات المفاجئة في الجينات Mutations. وهنــاك مــن لا يــزال يعتقد، مع لا مارك أن البيئة على المدى الطويل، تحدث تغيرات وراثية تنتقل بالوراثة.

لا يهمنا هذا الموضوع من الناحية العلمية، فإن له اربابه، لكننا، في حياتنا العملية العادية، نتصرف وكأن الطباع تورث، لا سيما في مجتمعات شبه مغلقة على نفسها، كمجتمعاتنا المدنيــة والقروية في القرون السابقة للقرن العشرين. وسواء كانت الوراثة وراثة حقيقيــة، أي بواســطة الجينات، أو وراثة مجازية، أي بتوالي التأثير التربوي الموجه للبيئة، فالذي يهمنا هنا، هــو أن بعض العناد والصلابة و يبس الرأس الذي عرف به أبي، وعرفت به أنا، قد يكون مرجعه الى الجذر الحموي، رغم أني، لم أعش في حماة اطلاقاً، ولم أزرها الا لماماً، ولفتــرات قــصيرة، ورغم أن أبي نفسه لم يعش فيها إلا سنواته الأربع عشرة الأولى من عمره.

كنت أجلس صباح يوم من أيام الصيف في الأربعينات في مقهى في الزبداني في ســورية انتظر قيام القطار ليقلني إلى دمشق. ولم يكن ســاعتئذ فــي المقهــى غيــري وغيــر اثنــين

على طاولة مجاورة، بدا من حديثهما، الذي كنت اسمعه، أنهما صاحبا كراجين في دمشق يتشاكيان صعوبة مهنتهما. ولما افاض أحدهما في شكواه هب له الآخر ليفحمه بقوله يا أخي إحمد ربك. يكفيك أن زبائنك ليسوا حمويين. إن عندي من زبائني الحمويين من رؤوسهم أيبس من هذا الحائط الذي أمامك.

وضحكت في سري، وحمدت الله على أن رأسي ليس يابساً، إلى أن اثبتت لي الايام أنه يابس شديد اليبوسة لا يلين.

"سربيطر" الجيش

أبي هو القائمقام المتقاعد الدكتور سليم ديب الرزاز، أكبر أولاد جدي، ديب، الذي خلف ثلاثة أبناء وأربع بنات، من زوجة واحدة - وقد كان هذا نادراً في ذلك الوقت- تنتمي الى آل الزعيم في حي الحاضر، في حماة.

ويبدو أنه ولد في وقت كانت التغيرات الأجتماعية التي بدأت في الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد بدأت تصل إلى حماة. كما يبدو أن جدي، ربما لأنه كان تاجراً كثير الأسفار، كان من المؤمنين بهذه التغيرات. فأولاده الثلاثة التحقوا بالمدرسة الابتدائية في حماة، واتموا تعليمهم فيها، ولم يكن هذا بالانجاز القليل، في وقت لم يكن أحد يرسل أبناءه فيه إلى أكثر من الكتاتيب. أما البنات، عماتي، فلم يتح لهن، طبعاً، أن يتعلمن، وبقين، ككل نساء حماة في ذلك الوقت، أميات.

وساعد الحظ أبي مرة أخرى، إذ كان الشيخ ابو الهدى الصيادي، شيخ مشايخ الصوفية المقرب إلى قلب السلطان عبد الحميد والذي اتهمه التحرريون والليبراليون في السلطنة العثمانية بكل أنواع التهم والحملات وبأنه كان وراء كل مظلمة ارتكبها السلطان، كان يريد أن يقدم خدمة لمدينته الاصلية حماة[1]، فاختار منها حوالي عشرة طلاب ليذهبوا، على نفقة الدولة، إلى استانبول ويلتحقوا داخليين في مدارسها. وكان أبي أحد هؤلاء. فالتحق بالمدارس الثانوية العسكرية، ثم بكلية الطب البيطري العسكرية، وبقي في استانبول طيلة مدة الدراسة لم يزر فيها حماة إلا مرة واحدة.

وهكذا أصبح أبي طبيباً بيطرياً ضابطاً في الجيش العثماني. وبدأ خدمته في اللاذقية، ثم في طرابلس الشام حيث تزوج وانجب ولدين وتوفيت زوجته، ثم في اليمن حيث قضى ثلاث سنوات، ثم في فلسطين طوال فترة الحرب العالمية الأولى، ثم في دمشق، حيث بقي فيها

---

(١) قرأت مرة أن أبا الهدى الصيادي من حلب وليس من حماة. ولست أدري حقيقة الأمر. ولكنني أعرف من أبي ومن حسن خالد بلقا أبو الهدى. إبن الشيخ، الذي أصبح في أواخر العشرينات رئيس نظام في شرقي الأردن، أنه حموي.

بعد انسحاب الجيش العثماني، ليلتحق بالجيش العربي الفيصلي ويصبح مربيطر الجـيش، أي رئيس أطبائه البيطريين. وعندما دخل الفرنسيون الى سوريا حل الجيش، وأحيل أبي فيمن أحيل من الضباط على التقاعد، وكان قد وصل الى رتبة قائمقام، اي عقيد. وكان خلال ذلك قد تـزوج من امي، عام ١٩١٧، وكنت أنا إبنه الذي ولد في عهد الاستقلال العربي.

كان أبي مهيباً ربع القامة، عريض عظم الهيكل دون سمنة، ذا طلعة جادة، لعل أبرز مـا فيها شارباه الكبيران المعقوفان من طرفيهما إلى الأعلى، واللذان حافظ عليهما حتى مماته، رغم أن موضة هذه الشوارب كانت قد انقضت مع انقضاء العهد العثماني.

كانت شخصيته طاغية، قوية. وكان أثرها علي بالذات أثراً عميقاً. وكان بالنسبة لي المثل الذي أريد أن أكونه. قد لا يكون سهلا علي أن أحدد معالم شخصيته. فأنا لست أديبـاً، ولـست محللاً نفسياً.

لكنني اعتقد أن عناصر ثلاثة اشتركت في تكوين شخصيته تلـك: حمويتـه، عـسكريته، وعلميته. أما حمويته، فقد قررت موقفه الأخلاقي، والمعالم الأساسية لشخصيته أما عسكريته، فقد قررت أسلوب حياته وسلوكه وتصرفاته. أما علميته فقد قررت طريقة تفكيره وموقفـه العقلـي. وبما أن هذه العناصر الثلاثة لا تتناقض، بل يغني بعضها بعضاً، وتصب جميعاً في قناة واحدة، فقد كانت شخصيته متزنة، قوية، مؤثرة فيما حولها، قوية من غير عنف، متواضعة مـن غيـر ضعف.

حنان الجدود

وكأن صلابة جدكم الحموية لم تكن تكفي، فجاءت صلابة جدتكم ويباسة رأسها، لتجتمع لنا أصول الصلابة والعناد ويباسة الرأس، من الجذرين.

كان أبي ضابطاً، وكانت أمي بنت ضابط، ونشأت في بيت أختها المتزوجة من ضـــابط. وهكذا نشأت في بيئة عسكرية عثمانية لها عقليتها، وأخلاقها، وصرامتها.

أبوها كان من أصل شركسي. وأمها كانت من أصل بوسني (بشناق). وجدتكم تربت تربية تركية، وكانت التركية لغتها الأصلية. هي نفسها لم تكن تذكر أباها، فقد قتله السلطان عبد الحميد، بتهمة التآمر على العرش، وهي في الثالثة من عمرها. وبقيت هي مع أمها وأختها التي تكبرهـــا بعشر سنوات، والتي تزوجت بعد قتل أبيها من ضابط صديق لأبيها في كتيبته. فكان بمثابـــة أب لها حتى تزوجت.

أبوها وزوج أختها كلاهما عمل في البلقان، في منطقة يوغوسلافيا الآن، في البوسنة اولاً، ثم في مقدونية، إلى أن سقطت هذه. ثم انتقل الجميع، عند قيام الحرب العالميـــة الأولـــى فـــي فلسطين. وهناك كان النصيب، وتزوجت أمي من أبي في الناصرة، حيث كان مركز القيادة.

وهكذا ترون أن الدم الشركسي، المعروف بالصلابة والعناد ويبس الرأس، والدم البشناق، الذي لا يقل عنه صلابة وعناداً ويبس رأس، والدم الحموي، قد اختلطت جميعاً، لتنتج صـــلابتي وعنادي ويبس رأسي.

عندما انسحب الاتراك من الشام انسحب معهم زوج خالتي، وبقيت جدتي مع أمي إلى أن تجاوزت الثانية من عمري. وأظن أن سفرها بعد ذلك الى تركيا، حيث خالتي وزوجها، كان أول ما انطبع في ذاكرتي من صور ما زلت اذكرها. فقد غادرتنا بالقطـــار مـــن محطـــة البرامكـــة

في دمشق. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها القطار وأسمع هديره، وودعتني بالقبل وودعتها ولدا لا أجرؤ على ترك احضان عمي للرهبة التي القاها القطار في روعي. ولم أر جدتي بعـد ذلك، فقد توفيت بعد سفرها بسنوات قليلة.

لقد نشأتم وكبرتم وأنتم، على الأقل، تعرفون جدكم وجدتكم لأمكم يغمركم حنانهما وحبهما اللذان لا يحدهما حد، وتنعمون بهذا الحنان والحب اللذين كنتم تجدون فيهما الملجأ والمأوى كلما افتقدتم من أبيكم أو أمكم شيئاً منهما لسبب أو لآخر. والحق أن حب الجد والجدة، كما عرفت من حب جديكم لكم، حب يختلف نوعياً عن حب الأب والأم. لأنه حب صرف. حب بلا مـسؤولية. حب يعبر عن نفسه أكثر مما يعبر حب الأب والأم.

أنا لم أعرف جداً ولا جدة معرفة حقيقية وافتقدت في حياتي حنان الجدود. جدي لأمي قتله السلطان، لأنه، كما يبدو، كان مناضلاً. وجدي لأبي مات من قبل أن يتزوج أبي. وجدتي لأمـي تركتني قبل أن تتكون عندي ذاكرة. وجدتي لأبي هي الوحيدة التي رأيتها في حماة، ولكنها كانت مشلولة، لا تكاد تبين في كلامها، فضلاً عن أن تظهر حباً او حناناً.

لم افتقد الجدود فحسب، بل افتقدت الخؤولة كذلك. فلم يكن لأمي غير أختها، وأولاد أختها، الذين عاشوا في تركيا. زارتنا مرة أول انتقالنا الى عمان. وزرناها مرة عام ١٩٣٢، ثم زارتها أمي وحدها بعد تخرجي من كلية الطب، وكانت زيارة الوداع.

تتذكرون انناء في عام ٧٣، زرنا بنت خالتي الكبرى في اسكدار حين زرنا تركيا. ولكـن كان ينقصنا وينقصها في تلك الزيارة الاحساس بروابط القربى المحببة. فقضينا عندها ساعة من زمان، وانتهت قرابتنا من بعد ذلك.

كانت أمي تختلف عن أبي اختلافاً كلياً. كانت هي أيضاً جادة وصلبة وعنيـدة. وحملـت مسؤوليات ضخمة في تربيتنا وتنشئتنا، لا سيما بعد وفاة أبي، لم تكن لتحملها أو تحمل أقل منها بكثير إلا أم صلبة عنيدة مناضلة عتية. ولكنها كانت شديدة الحساسية، حادة الاعـصـاب، تثـور لسبب ولغير سبب، وتعنف في تعاملها مع أبنائها عنفاً غير مبرر ولا معقول. ولعل ذلك يرجـع الى أنها عاشت يتيمة، مقطوعة من شجرة، لا تعرف من الأقرباء سـوى أمهـا وأختهـا وزوج أختها. حتى زوجها مات مبكراً وترك لها حمل مسؤولية كانت أكبر من أن تحتملها أعـصابها، وحملتها، مع ذلك، رغم أعصابها، حتى أوصلت أولادها جميعاً إلى بر الأمان. ولم تهدأ أعصابها إلا بعد أن أنهت رسالتها.

لقد عرفتموها، ولم تعيشوا معها. عرفتموها كأم أبيكم، ولم تعرفوها كجـدة. أنـا نفـسي، منذ بلغت الخامسة عشرة، لم أعش معهـا إلا لمامـاً وفـي فتـرات متباعـدة. فرقـت بيننـا الحدود وجوازات السفر والتجزئة والسياسة. وماتت ولم أتمكن حتى من السير فـي جنازتهـا.

بيفان وفيشنسكي

يتضح من هذا ان الأسرة تنتمي إلى أصول بورجوازية صغيرة. ولسوف يسعد المتمركسون باكتشاف هذا الإنتماء، الذي سوف يفسر لهم بسهولة تامة أسباب انحرافي عن أيديولوجية البروليتاريا، وتمسكي بأيديولوجية البعث، الأيديولوجية للقومية الأشتراكية الثورية!

فمسألة الانتماء عندهم، بكل بساطة، مسألة أصول طبقية، والناس مصنفون في مواقفهم من قبل ان يولدوا، لأن الأنسان محكوم بطبقته وبطبائع طبقته، مسير بهما، إلا طبعاً، اذا خان طبقته، كما فعل بيفان وفيشنسكي. فقد قيل أن بيفان وفيشنسكي. وكانا مندوبي بريطانيا والأتحاد السوفيتي في هيئة الأمم المتحدة، تناقشا بحدة في مجلس الأمن، فاتهم بيفان فيشنسكي بأنه لا يمثل البروليتاريا الحقيقية لأنه ينتمي إلى أصول بورجوازية، بينما هو، بيفان يمثلهم حقاً، لا لأنه ينتمي إلى أصول بروليتارية فحسب، بل لأنه هو نفسه بدأ حياته عامل منجم. فما كان من فيشنسكي إلا أن رد عليه بهدوء قائلاً: كلانا خان طبقته!.

ولا بد لي هنا من تأكيد ايماني بالفعل الطبقي، والموقف الطبقي، والصراع الطبقي، في التاريخ. وقد كتبت في ذلك في فلسفة الحركة القومية العربية ما فيه الكفاية، ولكنني أحب أن أؤكد هنا نقطتين أساسيتين، أولاهما أن الصراع الطبقي ليس المحرك الوحيد في التاريخ، وإنما هو عامل من جملة عوامل، يطفو بعضها ويبرز ويطغى في مرحلة من مراحل التاريخ، ويطفو بعضها الآخر ويبرز ويطغى في مرحلة أخرى. واذا كان هذا صحيحاً في الطبقات عامة في تجريدها التاريخي، فهو أكثر صحة في الاشخاص.. فالأشخاص لا تصنعهم طبقتهم فحسب، وإنما تصنعهم عوامل كثيرة، فيها الوراثة، وفيها عوامل البيئة على اختلافها- ومنها الموقف الطبقي-، وفيها بعد ذلك إرادة الاختيار، والمسؤولية، والحرية.

أما ثانيتهما، فتخص الطبقة البورجوازية الصغيرة بعامة، والطبقة البورجوازية الصغيرة في البلدان المتخلفة الرازحة تحت وطأة الاستعمار بخاصة. فكارل ماركس، في تقسيماته الطبقية، ابرز طبقتين فحسب هما الطبقتان اللتان ابرزتهما الثورة الصناعية، الطبقة البورجوازية والطبقة البروليتارية. وتحدث عن طبقة ثالثة، طبقة الملاك، ولكنه لم يستقص فيها. أما الفلاحون والبورجوازيون الصغار فلم يعتبرهم طبقات بمعناه المفهوم للطبقة- الذي لم يحدده ولم يعرفه اطلاقاً- وإنما أعتبرهم كتلاً هلامية لا شكل لها ولا مضمون ثابتاً، وإنما هم كالشوائب في الصورة ليس لهم عمل تاريخي غير تشويه هذه الصورة الرائقة البسيطة السهلة التي رسمها للتاريخ بالابيض والاسود. والحق أنه خلق بذلك عقبات وصعوبات أمام الماركسيين الذين يناضلون في بلاد أكثرية سكانها من الفلاحين كروسيا مثلا، تحيرت عقول كبيرة، كعقول تروتسكي ولينين، في كيفية حلها.

إن ماوتسي تونغ، وهو يقود ثورة في بلد متخلف جل سكانه من الفلاحين، وفي بلد رزح تحت الاستعمار الغربي والياباني وناضل ضدهما، تجاوز هذه الصعوبة بأن اخترع طبقات خمساً، وجعل لكل طبقة منها خصائص. فبعضها ضد الثورة، وبعضها مع الثورة مؤقتاً وبعضها مع الثورة دائماً وهلم جراً.

ورغم انني لا أحب هنا أن أتوسع في هذا الموضوع ولا في أي موضوع، توسعاً يحيل هذه اللمحات من سيرة حياة مواطن عادي إلى ابحاث تحتمل النقاش والجدل، أقول، رغم ذلك، أرى نفسي مسوقاً إلى الوقوف قليلا عند هذه النقطة، لنحذر من خطأين منتشرين لا أريد أن نقع فيهما، أو يقع فيهما أحد.

أولاً: أن نتوهم أن التعابير الشائعة في اللغة الماركسية تعني نفس المعاني في كل زمان ومكان. فالاقطاع، مثلا في بلادنا لا يمكن أن يماثل الاقطاع في أوروبا. فهذا له تاريخ ونظم وقوانين وتقاليد وعلاقات، وذاك له تاريخ ونظم وقوانين وتقاليد وعلاقات اخرى، هذا له دور في التاريخ، وذاك له دور آخر. وحتى بعض الماركسيين المتفتحين العرب لا سيما في مصر تنبهوا إلى ذلك، معلنين أنه ليس في مصر اقطاع، ولكن ملاكون زراعيون كبار. ومثل الاقطاع في ذلك، البورجوازية، والبورجوازية الصغيرة، والفلاحون، والبروليتاريا، وكذلك الصراع الطبقي، والموقف الطبقي من الثورة الوطنية، ومن الثورة الاشتراكية، وغير ذلك.

ثانياً: أن نتوهم أن البورجوازية الصغيرة في بلادنا المتخلفة، المستعمرة والتابعة للنفوذ والاقتصاد العالمي بشكل أو آخر، المتغيرة التكوين الطبقي بسرعة وتسارع كبيرين، تقوم

بنفس الدور التاريخي الذي تقوم به البورجوازية الصغيرة في أوروبا[1].

إن بعض الماركسيين يحبون أن يزعموا أن للفاشية والنازية في أوروبا هي نتاج طبيعي لطبقة البورجوازية الصغيرة، ثم يعممون هذه المقولة بالزعم أن الدعوة القومية العربية مثلها في ذلك مثل الفاشية والنازية هي دعوة البورجوازية الصغيرة، ثم يضفون على هذه البورجوازية الصغيرة وعلى دعوتها القومية سائر النعوت والصفات المعيبة المشينة، ويعزون إليها كل أسباب النكسات في المسيرة العربية، بحيث اضيفت البورجوازية الصغيرة إلى قاموس الشتائم السياسي.

وفي حين أنني لا أريد أن أتوسع (في هذا المجال) في الرد على هذه المقولة الساقطة فلا بد من الاشارة إلى أن البورجوازية الصغيرة في بلادنا هي اكثر الطبقات مرونة وقابلية للتغير صعوداً وهبوطاً، وأنها في أكثريتها العظمى، تنتمي إلى أصول فلاحية وعمالية، وأنها بالإضافة إلى ذلك تشكل العمود الفقري لكل الحركات الثورية، يمينها ويسارها، في البلدان المتخلفة، وإن معظم قيادات هذه الحركات، وبالأخص قيادات الحركة الشيوعية، تنتمي إلى هذه الطبقة.

إنها اكثر الطبقات فاعلية، وأقلها ثباتاً سواء في تكوينها، أو في وظيفتها التاريخية. فيها تصب باستمرار ملايين من ابناء الفلاحين والعمال، ومنها تتبع أصناف الحركات جميعاً، القومية والشيوعية والسلفية، وإليها ينتمي الثوريون والمحافظون ومضادو الثورة. إنها لا تتمتع بصفات الطبقة المتجانسة المتماسكة، ولكنها، بالتأكيد في هذا النصف الثاني من القرن العشرين على الأقل، وفي ظل الظروف الموضوعية التي تسيطر عليه، أكثر طبقات المجتمع "حيوية"، سواء كانت هذه الحيوية مفيدة أو ضارة، مستقبلية أو رجعية شعبية أو مضادة للشعب، يمينية أو يسارية. ذلك أن هذه الطبقة، وإن لم تكن أكثر طبقات الشعب إنسحاقاً، فهي أكثرها وعياً على الانسحاق، ولعلها، كذلك، أكثر قدرة على السحق اذا تولت السلطة!

بعض هذا الذي قلته مستقى من أعمال الفكر. ولكن معظمه مستقى من الخبرة والتجربة الحية التي اكتسبتها داخل السجون وخارجها، في سوح النضال الكثيرة التي خضتها. لقد عايشت عمالاً وفلاحين وطلاباً ومعلمين وضباطاً ومهنيين ورأسماليين. عايشت بعثيين وشيوعيين وناصريين واخواناً مسلمين وقوميين سوريين وفدائيين. وصدقوني أن التقسيم الطبقي الحاد الذي نقرأ عنه في المجتمعات الأوروبية لا نعرفه في مجتمعاتنا.

---

(١) وأقول في اوروبا بالتحديد لا في الغرب ولا في البلدان الرأسمالية المتقدمة صناعياً، لأن التصنيف الطبقي في أوروبا، والادوار الطبقية التاريخية الأوروبية لا يختلف عنه وعنها في البلدان المتخلفة فحسب، بل يختلف عنه وعنها في بلدين كالولايات المتحدة واليابان كذلك.

ولأن الانتماء الطبقي، رغم أهميته، ليس إلا عاملاً من جملة عوامل، في تحديد مسار الحركـات السياسية وليس العامل الأوحد، أو الأهم. ومن هنا كان تعبيرنا نحن البعثيين عن دور الجمـاهير الكادحة و الشعب، في مقابل المنتفعين الاقطاعيين والرأسماليين أكثر صدقاً وأقرب إلى الواقعية من تصنيفات البروليتاريا و الفلاحين، و المالكين الصغار و المالكين الكبار و البورجـوازيين الصغار و البورجوازيين الكبار.

وصدقوني أن أصول، الانتماء الطبقي أقل أهمية بكثير من الأنتماء الواقعي الآني؛ ففـي مجتمع سريع التحول كمجتمعنا، لا سيما بعد دخول النفط في حياتنا، تصبح أصول الأنتماء أقل أثراً من الأنتماء الحالي نفسه. فحين نتحدث عن المواقف الطبقية، فنحن لا نتحدث عن الأصول الممتدة إلى الآباء والأجداد، وإنما نتحدث عن انتماءات آنية. ولأن اعظم الأنتهازيين والمـستغلين والمرتدين ومضادي الثورة ينتمون إلى أصول كادحة. ولأن فتح اذا اعتبرناهـا أكثـر يمينيـة وواقعية من الجبهة الشعبية مثلاً، فان ذلك لا يعود إلى أصولها الطبقية، ولكن لأسباب أخرى.

مقهى "الكمال"

إذن انا معترف بأنني بورجوازي صغير في أصولي، أباً عن جد، وأنني بقيت بورجوازياً صغيراً في المهنة التي اخترتها لنفسي. كان جد أبي تاجراً... وكان جدي كذلك تاجراً. ولكن يبدو أنه كان تاجراً فاشلاً، أو أن مراكز التجارة في عهده قد تغيرت تغيراً كبيراً، فهو لم يترك لأولاده ميراثاً مشهوراً غير الدار التي كان يسكنها. ولا أدري ما الذي حل بتجارته، فإن أحداً من أولاده لم يرث تجارته. وكان أبي، بفضل البعثة التي اتيحت له، الوحيد من أبنائه الذي تعلم تعليماً عالياً، بينما اقتصر اخوانه على ما كان متاحاً لهما في ذلك العهد، أي التعليم الابتدائي.

إن انتماءنا البورجوازي الصغير هذا لم يصل بنا إلى أي مستوى من الرفاهية في اي وقت. لكنه لم يحل دون وصولنا، في بعض الاحيان، إلى درجات من العوز والفقر شديدة. لم نتعرض للجوع الحقيقي، ولكننا كنا على أبوابه في اكثر من فترة من فترات حياتنا المضطربة. وكان علينا دائماً أن نكافح، سواء في حياة أبي أو بعد وفاته، للحؤول دون الوصول إلى مستويات الفقر الشديد.

لم يكن قليلاً أن يكون الإنسان ضابطاً في الجيش العثماني، وأن يصل إلى رتبة قائمقام، وأن يكون سربيطر الجيش، لا سيما حين تكون الدولة، كما كانت الدولة العثمانية، دولة عسكرية التكوين والتشريح.

ولكن حين يحال مثل هذا الضابط على التقاعد في سن مبكرة، وفي عهد لا يحفظ للمتقاعدين حقوقهم المكتسبة، يصبح الأمر مختلفاً جداً. فحين دخل الفرنسيون إلى سوريا وزالت الدولة الفيصلية، سرحت البقية الباقية من الجيش، وأحيل الضباط على التقاعد، ورتبت لهم معاشات تقاعدية منخفضة و مؤقتة ريثما ينظر في أمرهم. ولكن ريثما

هذه طالت كثيراً. ودخلت أعداد كبيرة من الضباط المسرحين سلك التعليم. وكان ممكناً أن يتعرض أبي وأسرتنا لانخفاض كبير في مستوى المعيشة، كما حصل مع بقية الضباط، لولا أنه

كان يملك مهنته، الطب البيطري، في وقت كانت الخيل والعربات فيه ما تزال محتفظة بعزهــا، ولم تكن السيارات قد حلت محلها بعد، فافتتح عيادة بيطرية في دكان فسيح جــداً خلــف بلديــة دمشق، تحول، بعد انتقال العيادة منه، إلى أشهر مقهى في دمشق في تلك الايام، مقهى الكمال. ثم انتقل بعد أن ازداد العمل، إلى عيادة أخرى مكشوفة في فسحة كبيرة من الأرض في أول طريق بيروت، مجاورة لما كان يسمى جسر فكتوريا. ويبدو أن العمل كان جيداً. فقد كان دخل العيــادة يتراوح شهرياً بين ثلاثين وخمسين ليرة ذهبية، ولم يكن هذا بالقليل في ذلك الوقت.

ولكن الرياح لم تجر طويلاً بما تشتهي السفن. فقد قامت عــام ١٩٢٥ الثــورة الــسورية الكبرى في جبل الدروز، وامتدت إلى دمشق وضواحيها، وحاصر الفرنسيون دمشق والطرقــات المؤدية إليها. وقل التنقل بين المدينة وضواحيها، وأصبحت عيادة أبي موضع مراقبــة وشــبهة. واتهم هو بأنه يعالج خيل الثوار ويتصل بهم. وأصبح كل حصان يدخل العيادة موضـــع تحقيــق فتعطل العمل، وخلت العيادة من زبائنها. وانخفض دخلنا فجأة.

وهنا قرر والدي أن يخرج من سورية، وبدأ التفتيش عن عمل خارجها. وهكــذا وجــدنا أنفسنا في عمان، حيث بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياتي.

حينما كنت في المراحل الأخيرة من دراستي الثانوية كنت ما زلت محيراً في اختيار الفرع الذي أدرسه في الجامعة. فقد كانت ميولي واهتماماتي متعددة متشعبة. احب الآداب واحب العلوم واحب الفلسفة على حد سواء. قال لي أبي يوماً ونحن نناقش هذا الموضوع: أدرس مــا شــئت. على أن تكون لك مهنة، بحيث لا تضطر إلى الأعتماد على الوظيفة في تدبير أمــور معاشــك. فالأيام صاعدة هابطة، والدول تتغير في هذا الزمان تغير الطقس، فإن كان بيدك مهنــة ملكــت استقلالك وحريتك. والا فقد أصبحت عبداً للزمان، ولأرادة غيرك. ولولا أن في يدي مهنة لمــا تمكنت، بعد دخول الفرنسيين، من تشتتكم كما أحب وأبغي.

يومها مال قراري إلى ناحية دراسة الطب أو الهندسة. ثم استقر بعد ذلك على الطــب، لا سيما بعد نصيحة من أستاذنا الحاج مير في الكلية العربية من أنني بساقي المهيضة، لا أصــلح لمهنة الهندسة التي تحتاج لتسلق العمارات كما قال.

لقد كان في مشورة أبي كثير من الحق. وليس من قبيل الصدفة أن يبرز هذا العدد الكبير من الأطباء في العمل السياسي النضالي في بلد كالأردن. فمن الدكتور أبو غنيمة، إلى الدكتور شقير، إلى حبش، إلى وديع حداد، إلى زيادين، وأن يستمر كل منهم في النضال إلى آخر حياته، تقريباً. فهذا الشعور بالاستقلال والحرية الذي يتيحه كونك صاحب مهنة في بلد ما زال يزحف خطواته الأولى في النهضة يمنح المناضل قوة لا يمتلكها من يشعر بالحاجة إلى الدولة من أجل أن يعيش.

في بلد أكثر تقدماً، كمصر مثلاً، تولى المحامون قيادة الحركة الوطنية بشكل عام. ولكن في بلد كالأردن فالمحامون لم يكونوا قد استقلوا عن نفوذ القضاة والمحاكم بعد. والمهندسون لم يكن لهم عمل خارج نطاق الحكومة ولم يبق غير الأطباء يحملون هذه المسؤولية، رغم التناقض الظاهر، والحقيقي، بين ما تقتضيه مهنة الطب من تفرغ، وما يقتضيه النضال السياسي الطويل من شبه احتراف.

لذلك ليس غريباً أن تعود الأمور في الاردن الان إلى نصابها، وأن يعود للمحامين دورهم، بعد أن استقلوا عن الدولة والمحاكم، في قيادة الحركة الوطنية، وان يتضاءل دور الاطباء فيها.

نفذ ولا تناقش

البيئة البيتية كانت بيئة عثمانية. الاخلاق والتقاليد والعادات التي كان علينا أن نتصرف بموجبها كانت اخلاق وتقاليد وعادات عثمانية. على رأسها جميعاً يأتي احترام الصغير للكبير في تنظيم هرمي دقيق لا يقبل التعديل والتحديد. وكان هيكل هذا التنظيم الهرمي يتجلى، تجسيدياً، في كيفية توزع جلوسنا على مائدة الطعام. يتصدرها أبي، وتجلس أمي على يساره، ثم يليهما من الجانبين الأخوة والأخوات، في تدرج من الأكبر الى الأصغر. لذلك كان لكل منا مكان محدد على المائدة لا يتجاوزه.

لا يجوز لأحد أن يبدأ الطعام قبل أن يبدأه الأب. لا يجوز لأحد أن يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه. لا يجوز لنا التصفير اذا كان أبونا في البيت. وفي كل الاحوال لا يجوز التصفير بعد المغرب لأنه، في عرف أمي يستجلب الشياطين. أما لماذا يفعل التصفير ذلك ولا يفعله الغناء أو الموسيقى، فلا أنا أدري، ولا أظن أمي درت.

في جلستنا، ونحن نجلس طبعاً على طراريح ،أي مقاعد واطئة من قماش محشوة بالقطن أو الصوف ممدودة على الارض، أو على دواشك وهي كالطراريح لكنها ممدودة على مقاعد خشبية مرتفعة عن الارض- لا يجوز لنا أن نمد سيقاننا اذا كان أحد والدينا جالساً. فذلك عيب كبير. لا يجوز لأحد منا، ولو تجاوز العشرين وأصبح صاحب عمل كما كان الحال مع أخوي الكبيرين، أن يتأخر عن موعد العشاء في الليل، الا إذا استأذن قبل ذلك، وبين أين سيتأخر.

اذا أمر أبي أحدنا بأمر كان علينا أن ننفذ الأمر دون مناقشة، الا اذا طرح هو الأمر علينا للمناقشة والاستئناس بالرأي. وهكذا فان شعار نفذ ثم ناقش المتبع في الاحزاب الثورية لم يكن جديداً علينا. فقد ربينا على نفذ ولا تناقش!

لم يكن لأمي أن تنادي أبي باسمه. بل ولا بكنيته أبي فلان. وإنما كان عليها أن تقول سليم بك. ولقد زارنا مرة، ونحن في عمان. طبيب مع زوجته وباتا عندنا ليلتين. وكان موضع استغرابنا جميعاً أن تناديه زوجته باسمه المجرد. ففي ذلك خروج على الأصول إن لم يكن خروج على الأدب! حتى نحن الاطفال لم نكن نستعمل كلمتي بابا أو ماما، بل نستعمل أبي وامي. ففي بابا و ماما دلع لا يسمح به في بيتنا.

لا يخطرن في بالكم، مع ذلك، أن أبي كان قاسياً عنيفاً. كانت شخصيته قوية وطاغية على من حوله. نظرته، وحدها، كافية لتأديبنا. لم يكن في حاجة الى أن يستعمل معنا أسلوب الضرب. ولا أذكر أنه ضربني غير مرة واحدة. ولكن أمي كانت، رحمها الله، تعوض في هذه الناحية ما ينقصه. فقد كانت يدها فالتة لا ترى في غير الضرب، بكل أدوات الضرب، وسيلة للتأديب، إلا إذا استثنينا الحبس في الحمام، أو حرق اللسان بالفلفل. فقد كانت تفقد السيطرة على أعصابها تماماً اذا غضبت.

هل تستغربون ذلك؟ لقد تغيرت الدنيا، طبعاً، تغيراً كبيراً خلال عقود قليلة من السنين. وتبدلت أصول التربية تبدلاً اساسياً. وما كان مقبولاً ومعتاداً قبل خمسين سنة لم يعد مقبولاً ولا معتاداً هذه الايام. العصا لمن عصى كانت شعار تلك العهود، في البيوت، وفي المدارس.

ولكن لا تتوهموا أننا كنا نفتقد الحب، فرغم أن التقاليد العثمانية، بالأضافة الى التقاليد الحموية والشركسية والعسكرية، لم تكن تشجع على إظهار العاطفة والتعبير عنها بوضوح، فإظهار العواطف عيب لا يليق بالرجال، فقد كنا نحس بالحب من حولنا، من أبينا، الشديد في غير عنف، ومن أمنا العنيفة من غير كراهية أو حقد. لم نكن لنشعر أن هذه القوانين المفروضة علينا قيد شاذ على حريتنا. بل عنا نشعر أنها من طبيعة الاشياء.

في الاحوال العادية أي حين لا نذنب، كان يحب أبي ان يجالس أسرته، فيحدثنا ويلاعبنا ويسامرنا، لا سيما أنه لم يكن يشرب الخمر أو يلعب القمار أو يحب أن يقضي ساعات طويلة في المقهى، كما يفعل أترابه. كانت تسليته الاساسية العناية بالحديقة. وكان يتطلب منا أن نساعده. كان العمل في الحديقة بالنسبة له سلوى وهواية. وكان بالنسبة لنا واجباً اضافياً لا نملك أن نرفضه. كان رجل أسرة. يحب أن يجلس وأن يجالسنا وأن نحيط به حين نجلس، وأن نعاونه حين يعمل.

كذلك لا أريدكم أن تتوهموا أن هذه الحياة العثمانية العسكرية، وهي غير الحياة العثمانية العادية، كانت نواهي فحسب. واذا كنا، اليوم، أكثر تذكراً للنواهي فلأنها ضايقتنا صغاراً، ورفضناها وثرنا عليها كباراً. والحقيقة أنه كان لهذا النواهي وجهها الآخر، وجه خلق الأنسان كما كان يجب أن يكون في عرف الاخلاق العثماني العسكري. هذا العرف الذي يكاد يكون واحداً في كل التقاليد العسكرية العريقة في أي بلد من بلاد الدنيا. ولعل نموذج

العسكري الالماني، ونموذج النبيل البريطاني الاستعماري نموذجان لا يختلفان كثيراً عن نموذج العسكري العثماني، في غاياتهما على الاقل، رغم الأختلاف في النتائج بسبب الأختلاف في درجة التقدم.

فالأنسان، في مثل هذا العرف، ينبغي أن يكون منضبطاً، مطيعاً، محترماً لمن هو أكبر منه سنا أو منزلة. وهذا الأنضباط تتكفل به النواهي. وينبغي أن يكون، بالمقابل، صادقاً، أميناً، صبوراً، عادلاً، معتزاً بكرامته. وهذا الوجه تتكفل به الأوامر، والحث، والقدوة، والعقاب الشديد في نفس الوقت. ولا غرابة في ما قرأته قبل أيام من أن عقوبة الجلد ما تزال مطبقة في المدارس البريطانية، بعد أن ألغيت في كل المدارس الأوروبية الأخرى.

يقال أن هذا النوع من التربية يقصد به خلق الطبقة الرجعية المحافظة الضرورية لبقاء الأمبراطوريات. ومن هنا فقد غابت عنه أهداف الحرية، و بناء الشخصية المستقلة، وتشجيع المبادرة الفردية، هذه الأهداف التي أصبحت في جيلكم أنتم عنوان التربية الحديثة وشعاراتها المعلنة حتى حين لا تطبق فعلياً.

لقد عشت، إذن، في بيئة بيتية واعراف اخلاقية لم يكن من شأنها أن تهيئني لمستقبل ثوري نضالي، ويبدو، في ظاهر الأمر، وكأني أصبحت مناضلاً ثورياً فيما بعد بالرغم من هذه البيئة والأعراف لا بسبب منها. أو هكذا تزعم، على الاقل، نظريات التربية الحديثة. ولكنني أحب أن أزعم أن هذه التربية العثمانية العسكرية نفسها، وإن أصبحت صعبة التحقيق في عصر تسوده المثل والمبادىء الأمريكية، هي التي أمدتني بالقوة لرفض مجتمع متخلف راضخ للاستعمار، ذليل، مستغل، مزيف، منافق، ظالم، ومهين للكرامة، تتناقض قيمه السائدة مع القيم الاخلاقية التي آمنت بها وربيت عليها، والتي كانت وراء موقفي الاخلاقي، الذي رسم خط حياتي كلها.

يجب أن أعترف بأنني لم أعد، الآن، من انصار هذه التربية القديمة، لأنها لم تعد ملائمة لمعطيات العصر ولا لمتطلباته. ولقد ثرت عليها نفسها في ضمن ما ثرت عليه من معطيات كثيرة. وكتبت في معالم الحياة العربية الجديدة قبل ثلاثين عاماً باباً كاملاً في نقد هذه الاخلاق، وفي الدعوة الى بناء اخلاق جديدة تحل محلها. لكنني يجب أن أعترف أيضاً بأن نقدي الأساسي اتجه نحو ذلك الجزء المتعلق بالنواهي في الدرجة الأولى، وبأسلوب التربية في الدرجة الثانية، ولم يتجه نحو القيم الخلقية نفسها التي أكدت عليها التربية العسكرية، قيم الصمود والصبر والصدق والصلابة. إنني آمنت، بلا ريب، بالحرية، وبالمسؤولية العامة، وبالاستقلالية، بشكل لم يكن واردا في الأخلاق القديمة. ولم أومن ابداً بالفلتان

الخلقي، و الاستهتار، و الأنحلال الذي صدرته إلينا الحضارة الغربية في وجوهها المنحطة المنحلة.

إن القيم الاخلاقية هذه تظل هي هي في كل عصر. وإنما الذي يختلف مع اختلاف الظروف هو قواعد السلوك. وقواعد السلوك شيء متميز ومختلف عن مبادىء الاخلاق وقيمها تميزاً واختلافاً كلياً. والمجتمع المتخلف أميل الى أن يضع قواعد السلوك في موضع القيم. و المجتمع المتقدم، أو الذي يريد أن يتقدم، يجعل للقيم موضعها و للسلوك موضعاً آخر.

إن للقيم ثقلاً قد لا يجعلها صالحة للنجاح السياسي السهل في مجتمع فاسد مزيف. ولعل هذا هو الذي دفع عبد الحليم خدام وعبد الله الأحمر إلى الأعتراض على وجوب توفر الأخلاق في العضو البعثي في المؤتمر القومي الثامن. و لعل شيئاً من هذا أيضاً يكمن وراء اخفاقي الشخصي في عالم السياسة. لكنني لا أتصور ثورة حقيقية بلا قيم خلقية. ولا أتصور ثائرا حقيقيا بلا قيم خلقية.

لقد انصب اعتراض ماركس نفسه على قواعد السلوك البورجوازية التي أحلها البورجوازيون محل القيم الاخلاقية، لا على الاخلاق نفسها. و لكنه اعتبر أن للبروليتاريا اخلاقها المنسجمة مع رسالتها التاريخية، و الرافضة لكل أنواع الاستعباد و الاستغلال و تشييء الأنسان، و المؤمنة بكل ما يؤمن للأنسان حريته و قيمته، و يؤدي لأحلال ذات الانسان محل الموضوع.

كانت تربيتي، إذن، قاعدة أساسية بني عليها موقفي الاخلاقي. و لم يكن الأساس في هذه التربية الثواب أو العقاب. و إنما كان في القدوة التي مثلها أبي في حياتي. فقد كان تجسيدا لما يدعونا إليه. كان هو نفسه صادقاً، أميناً، صبوراً، عادلاً، معتزاً بكرامته. و كنا نلمس هذا فيه و نعرفه و نحاول أن نكون مثله.

لقد تغيرت أشياء كثيرة في حياتي فيما بعد. لا سيما بعد وفاة أبي، وبعد ابتعادي عن أهلي و جذوري، و بعد دخولي الحياة العامة و حملي للمسؤوليات خاصها وعامها. ولكن القيم الأساسية التي غرسها في ظلت فاعلة في شخصيتي حتى اليوم.

على كيفك

إن جيلكم، الذي عاش عصر الراديو و التلفزيون و الستيريو و السيارة و الطيارة، و أدرك عصر الكمبيوتر و الليزر و الألكترون، قد لا يدرك بوضوح مدى الفرق الهائل بين المجتمع الذي يعيشه و المجتمع الذي عشناه في صبانا. و جيلنا حين يتحدث عن صباه فهو إنما يتحدث عن مجتمع يبعد عنا في حساب الزمن التقويمي ستين عاما فحسب. و لكنه يبعد عنا في حساب المحتوى و المضمون بعداً سحيقاً.

كان أبي يحدثنا عن مجتمع صباه. و كنا نستهول الفرق بين صباه و صبانا. و لكن ما أهون ذلك الفرق بين صبانا و صباكم!

إن التغير الكبير الذي أصاب حياة الناس و علاقاتهم، و نوعية متطلباتهم، و مستوى معيشتهم، ليس مما يسهل استيعابه على من لم يعايش هذا التغير. و رغم أن بداياته أخذت تلمس منذ النصف الثاني للقرن الماضي، أو بدايات هذا القرن، لا سيما مع دخول الكهرباء و الترام و السكة الحديدية و التلغراف و السيارة و المدرسة الحديثة و الجريدة، فإن التغير إنما بدأ يتعمم و يؤثر في حياة الناس بعد الحرب العالمية الاولى. و مع ذلك، فقد استمر التغير بطيئاً جداً، و بقيت الحياة، بشكل عام، بسيطة جداً، حتى الحرب العالمية الثانية، حين انطلقت تقفز قفزاً و تتسارع تسارعاً مذهلاً، و تتبدل مظاهرها و معطياتها تبدلاً هائلاً.

إن عدد تلاميذ الصف الثاني الثانوي في مدرسة عمان ظل يتراوح طيلة مدة دراستي فيها على مدى ثماني سنوات بين ستة و ثمانية من الطلاب. ثم غبت عنها عام ١٩٣٥، و عدت إليها مدرساً عام ١٩٣٩ و إذا بعدد طلاب هذا الصف قد قفز إلى أربعة و عشرين، ما لبثوا في العام التالي أن تضاعفوا و أصبحوا ثلاثة و خمسين. و هم الآن، في عمان وحدها، ألوف.

كانت أسرتنا، كما قلت، أسرة متوسطة، و لكن حياتنا كانت بسيطة كل البساطة، لا لميزة فينا، و لكن لأن متطلبات الحياة كانت هي نفسها بسيطة. و كانت هذه المتطلبات لا

تختلف كثيراً بين القادرين و المعوزين وإنما تختلف القدرة على تلبيتها. و معظم الفروق بين غني و فقير كانت فروقاً كمية لا نوعية كما هو الحال الآن. فالغني يمتلك عدداً من المراتب و الوسائد و اللحف اكثر مما يمتلك الفقير. أو يكون ثوب السيدة الغنية في السلط أطول من ثوب الفقيرة. فقد يبلغ طول الخلّقة ستة أذرع، تطوى على بعضها عدة مرات و هي تغطي جسد الأمرأة الغنية، بينما لا تلبس الفقيرة الا مدرقة، قد تكون من نفس القماش، و لكن طولها طول الجسم نفسه فلا تطوى.

كنا، مثلاً، مثلنا مثل غيرنا، فقراء و متوسطين و أغنياء، نتناول طعامنا على طبلية مستديرة نتحلق حولها، و نفترش الأرض والطراريح، و نتناول طعامنا من القصاع و الصحون مباشرة، و لم نمتلك مائدة للطعام مرتفعة نجلس على الكراسي من حولها، و يكون أمام كل منا صحنه إلا حين انتقلنا الى عمان، ١٩٢٧.

بالمقابل، فقد كان بيتنا طاقم من الكنبات الشامية المصدفة في غرفة الضيوف. و لكن كان علينا أن نحافظ على هذه الكنبات و أن نرعاها رعاية خاصة. فنلبسها غطاءً من قماش أبيض يقيها من الغبار و أشعة الشمس، لا نرفعه إلا أيام الاستقبال، أي الأيام المخصصة للزيارات النسوية، و أيام الأعياد، و حين يغسل. و لم يكن لأحد منا أن يدخل غرفة الضيوف أو يستعمل تلك الكنبات إلا إذا كان عندنا ضيوف.

كانت أرض الغرف تفرش بالحصير، يعلو بعضاً منه بسط - جمع بساط - و بعضاً منه سجاجيد محلية رخيصة. أما السجادة العجمية فترف لم يدخل بيتنا إلا في الثلاثينات.

و كان علينا، حين ندخل الدار، أن نخلع أحذيتنا عند الباب، و نلبس الخف المنزلي، حتى لا ننقل تراب الازقة و طينها إلى الداخل. فهذه العادة ليست يابانية كما يتوهم ابناء هذا العصر المتابعون للتلفزيون، و إنما هي عادتنا كذلك، أقلعنا نحن عنها، و أحتفظ بها أهل اليابان.

و لم يكن في بيتنا إلا سرير حديدي واحد، مخصص للأب و الأم. أما بقية الرعية من الأولاد فكانت تنام على فرش تمد على الأرض ليلاً، و ترفع نهاراً و يصف بعضها فوق بعض.

في دمشق، كانت الكهرباء، موجودة في دورنا. أما في عمان فلم تدخل دورنا إلا في أواخر الثلاثينات. و كانت لمبة الكاز، و اللوكس هي وسيلة الاضاءة. هل تدركون معنى أن تدرسوا في الليل على لمبة كاز نمرة ٤؟ جربوها مرة، بعد أن اعتدتم على نور الكهرباء، لعلكم تشفقون علينا و على ايامنا!

كان الماء جارياً في بيوت دمشق منذ آلاف السنين، و ربما منذ أيام عاقصة و عيروط

المذكورين، فيما أظن، في قصة سيف بن ذي يزن، و لكنها لم تكن صالحة للشرب إلا بعد أن تصفى في "الزير" و لكن في أيامنا نحن، فقد كنا نستقي مياه الشرب من حنفيات "الفيجة" التي نشرها في أحياء دمشق، لا في بيوتها، أحد ولاة الشام، و أظن أنه مدحت باشا. و استحق من أجل ذلك، و من أجل اصلاحات كثيرة اخرى حققها، الدعوات الصالحات له من اهل دمشق. كنا نحمل جرارنا، مرة أو مرتين كل يوم، و نذهب إلى حنفية الفيجة لنملأها مياه نقية صافية. أما في عمان فقد كان "السقاء" يحمل الينا الماء في صفائح على ظهر حماره، الى أن عم توصيل المياه الى البيوت في اوائل الثلاثينات.

ركبت السيارة، لأول مرة، عام ١٩٢٧، حين سافرنا الى حماة لحضور عرس ابن عمتي. فالسيارات القليلة الموجودة لم تكن لتستعمل في التنقل داخل المدينة إلا في حالات استثنائية. فالعربات التي تجرها الخيول، اضافة الى الترام، كانت هي وسائل المواصلات الداخلية. و كان سفرنا الى حماة في يوم مطير غزير المطر. و الطريق ترابية. و السيارة، ككل سيارات ذلك العهد مكشوفة، تغطى بغطائها القماشي عند الحاجة، و تضاف اليها ستائر جانبية شفافة تحل محل زجاج النوافذ، لا تمنع المطر بأكثر مما تمنعه مظلة. و ندمت أمي على اختيارها السيارة للسفر، و قالت انها لو علمت أنها ستكون بهذا الشكل لفضلت السفر بالقطار. و استغرقت الرحلة يوما كاملا. و كانت، مع ذلك كله، في عرف أمي، رحمة. فقد قطعت المسافة معكوسة، من حماة الى دمشق، بعد زواجها، حين استقر المقام بأبي في دمشق بعيد الحرب، خمسة ليام، في عربة تجرها الخيول، و سرق منها في الطريق "جهاز عرسها" كله، و وصلت الى دمشق من غير جهاز!

في تلك الرحلة الى حماة، و كانت المرة الأولى التي نخرج فيها من دمشق، تعرفت على الفونوغراف ذي البوق، في دار عمة من عماتي. و تعرفت على صوت أم كلثوم و أحببتها في اسطوانة وحيدة لها كانت عند عمتي، هي أغنية:

أنا على كيفك، على كيفك
ما اقدرش ابداً أخالفك
كده أنا على كيفك

و حفظتها، و غنيتها، و ما زلت احفظ جزءاً منها حتى اليوم، لكثرة ما غنتها النساء في العرس و رددنها، ذلك العرس الذي امتد أياماً قبل ليلة العرس و أياماً بعده. و كان الفرح و المرح و الغناء و الطرب و الرقص يملأ أرجاء دار عمتي، يشارك فيه كل الأقرباء و الأصدقاء والجيران والأحباء. ويلوح لي أن عصرنا هذا و قد تحضر و تمدن و تقدم، قد فقد كثيراً من ذلك

الفرح العفوي، والبهجة العفوية التي كان الناس يحسونها في أفراحهم، وتلك المشاركة الصميمية التي يحسونها ممن يحيطون بهم، في الفرح وفي الحزن معاً. كانت روابط الناس الأنسانية تجمعهم الى بعضهم. ولم تكن الفردية قد ذرت بقرنها بعد، وفرقت الناس بعضهم عن بعض. هل في هذا كله رومانتيكية مفعمة بالحنين الى الماضي المندثر مما لا يليق بمفكر تقدمي؟! هذا ما سوف يقوله الخصوم، وما سوف أقوله أنا أيضاً. ولكن لا تنسوا أنني أكتب هذا وقد قضيت سنواتي الأربع الأخيرة في عزلة عن الناس. وهل في حنيني الى الروابط الانسانية التي تربط الناس ببعضهم غرابة؟

منذ تلك الرحلة أحببت أم كلثوم، وتسقطت أغانيها حيثما أمكنني سماع اسطواناتها، وحفظت الكثير منها وغنيتها. ولمت حبي لها الى اليوم، على صعود في هذا الحب وهبوط، حسب أحوالي العامة وأحوالي النفسية. وأنا حتى اليوم أقدرها وأحبها وأحب سماع صوتها، لا سيما بعد أن تعددت "وارثاتها" اللواتي يسعين الى احتلال عرش الغناء مكانها.

عندي لحديث أم كلثوم رجعة فيما بعد. فقد كان لها دائماً في حياتي وجود، لا سيما بعد دراستي في مصر. وأنا أعرف أنكم لا تحبونها كثيراً، وأعرف أنها عند الكثيرين من المثقفين، لا سيما التقدميين منهم، عنوان للتكاسل والتنبلة. وأذكر فيما أذكر قصة من صفحات كثيرة أظن أنها ثلاثون صفحة نشرها في "المقتطف" محمود سيف الدين الايراني، تقوم على محور واحد، محور السكارى في مقهى من مقاهي يافا يرددون مع أم كلثوم ترديداتها التي لا تنتهي في اغنيتها التي تقول فيها:

وتميل عليه وتقول له ليه طاوعتني ما هي غلطتك...

والعالم من حولهم يدور ويسير ويجري، وهم قاعدون على كراسيهم يرددون معها ويغنون، ساهين عن هذا العالم كله.

وأذكر أنني أعجبت بهذه القصة إعجاباً شديداً، رغم أني كنت قد سمعت بالايراني فيها لأول مرة. وأشهد أنه محق، رغم كل محبتي لأم كلثوم، فأم كلثوم في الحقيقة ليست مجرد فنانة عظيمة، وانما هي صورة لمرحلة من مراحل عصر. مرحلة كان على رأسها، ومثلها حق التمثيل، أم كلثوم، ويوسف وهبي وطه حسين وأحمد شوقي وسعد زغلول، كل في ميدانه. مرحلة كانت فيها ترديدات أم كلثوم، كنثر طه حسين، كشعر شوقي، كمبالغات يوسف وهبي الدرامية، كنضال سعد زغلول، تحمل معاني النهضة، ولكن في مجتمع خامد خامل بطيء التحرك، يحاول أن يسير، ولكنه يحمل أثقالاً من التخلف معه ويجرها وراءه. ولعلي من أجل ذلك أحببت هؤلاء جميعاً أيام الصبا. فقد كانوا يرسمونني اذ يرسمون عصرهم. بكل ما في

ذاتي، في ذلك الوقت، من تطلع، وبكل ما تحمل من أثقال.

صحيح أنني، بعد ذلك، تخليت عنهم، واحداً بعد الاخر، ولكن بقي في أعماق نفسي دائماً مكان لأم كلثوم ومكان لطه حسين، وما زلت أحب أن أسمع الأولى وأن أقرأ الثاني، فتعود بي أم كلثوم الى أيام الشباب الحبيبة التي ضاعت مني، وينقلني طه حسين الى أسرار موسيقى اللغة العربية وايقاعها، فاطرب لها، للموسيقى ذاتها، أكثر مما يهمني ما تحويه هذه الموسيقى من رأي.

فأم كلثوم انتهت. أو يجب أن ينتهي أسلوبها وألحانها وترددها. فالعصر غير العصر.. والايقاع غير الايقاع. واذا كنا نحن، الذين عشنا تلك المرحلة، محقين في استمرار إعجابنا بها، فأنتم محقون في أن لا تحبوها. ومحاولات وارثات أم كلثوم محاولات من خارج العصر. وأسوأ منها إستمرار سيطرة ملحنيها على سوق الألحان حتى اليوم، وتخريب كل الملكات الجديدة التي تفتش لها عن طريق، وقولبتها في نفس القالب القديم. لقد سمعت ميادة الحناوي تغني ألحانها، وإذا بها ترجع كلها الى مدرسة أم كلثوم في الغناء، وفي اللحن وفي الاداء. وحزنت. فالصوت جميل وقدير، رغم أنه ما يزال غضاً ومراهقاً ونحاسياً ويؤدى دون إحساس. ولكن مصيرها الضياع إذا استمرت على نفس الأسلوب. أما ترى أن فيروز لو اتبعت طريق أم كلثوم لانتهت منذ زمن طويل؟

كانت رحلتي الى حماة أول سفر لي في حياتي. ولم يكن الناس يسافرون كثيراً. واذا لم تتأت للانسان مناسبة هامة ما كان ليسافر. وكانت سفرتي تلك أول مناسبة أخرج فيها من محيطي الصغير المحدود الضيق المقفول، لأرى محيطاً مختلفاً. لقد قضيت في حماة شهرين. والغريب أنني، حتى الآن، أتذكر من تفاصيل هذين الشهرين أكثر مما أتذكر من حياتي في دمشق سنوات. ربما لأن البيئة المختلفة كانت تجربة فريدة استثنائية، وربما لأن حياتنا في دمشق كانت عادية، فنفقد في عاديتها وعينا عليها، أو ما يسميه البرتومورافيا "الاتنباد" في روايته المعروفة بهذا الاسم.

في دمشق كان ذهابي الى السينما للمرة الاولى، وهي، في دمشق، المرة الوحيدة. شاهدنا فيلماً اسمه "أولاد الليل" أو "ابن الليل" أو شيء من هذا القبيل. كذلك ذهبت مع اخي ليلة من ليالي رمضان الى قراقوز عواظ، أو خيال الظل. وهو عرض بالظل على شاشة بيضاء، يحكي قصة عنترة وعبلة. وشاهدنا "صندوق العجائب" أو صندوق الدنيا. وشاهدت أول مسرحية في حياتي عرضتها فرقة "أمين عطا الله" المصرية. وهكذا أدركت نهايات الفنون الشعبية القديمة، وبدايات الفنون المرئية الحديثة. فقد كانت بلادنا تودع مرحلة في تاريخها، وتستقبل مرحلة فلم تعد الفنون القديمة تناسب العصر. ولم تكن الفنون الجديدة

قد وقفت على أقدامها بعد.

هكذا كانت حياة الناس بسيطة، سهلة، رخيصة، وخالية من كل جديد. حتى ألعـــابي فـــي الدار، وأنا ابن طبقة متوسطة، لم تكن لتشترى من السوق، وإنما تصنعها أمي من بقايا قماش أو ورق، ولعلي كنت احسن حظاً من غيري، لأن أبي كان يأتيني من صيدليته الملحقـــة بالعيـــادة البيطرية بالعلب الكرتونية الفارغة، ابني منها بيوتاً وقطارات، واتمتع بها كما لم يتمتع غيري.

اسماعيل أفندي

التحقت بالمدرسة وأنا لم أكد أتجاوز الثالثة من عمري، حين كنا نسكن بيتنا الجميل في حارة الورد. ربما كان حماس والدي لهذا الاجراء المبكر يعود الى انه أراد لي اتقان لغتي العربية. لا سيما أن لغة البيت المعتادة كانت في الغالب التركية. فأمي بدأت في تعلم العربية بالمران والأختلاط. ساعدها على ذلك قراءتها المستمرة للقرآن الكريم، واتقانها القراءة والكتابة لأنها كانت قد أنهت تعليمها الأبتدائي، ولكن العربية لم تحل محل التركية في الدار إلا بعد انتقالنا الى عمان. حيث بدأنا نحن ننسى التركية لقلة استعمالنا لها، وندرة من يتحدث بها في عمان.

وربما ازداد حماس والدي بسبب أن مالك دارنا نفسه هو صاحب المدرسة القريبة جداً من الدار. وكذلك لأن صاحب المدرسة هذا هو أيضاً كأبي ضابط متقاعد من الجيش العثماني والفيصلي.

كنت اعرفه بإسم اسماعيل افندي فقط. ولم اعرف أنه اسماعيل حقي إلا حين راجعني، بعد تركي لمدرسته باربعين عاماً، وأنا أمين عام للحزب في دمشق، يطلب مساعدته في نقل ابنته المعلمة من مكان الى مكان. جاءني مدير مكتبي يقول إن شخصاً إسمه اسماعيل حقي يريد أن يقابلني ويقول إنه علمني وأنا صغير. ولما أدخله علي قفزت صورته، التي ظننت أنني نسيتها، أمام ذهني فجأة، ورأيت أمامي اسماعيل افندي، معلمي الاول، وكأنني لم أرافقه إلا البارحة، رغم أنني نسيت الكثير الكثير من ذكريات الطفولة والأكثر الأكثر من ذكريات الشباب، ورغم أني مصاب بداء النسيان، لا سيما نسيان الوجوه والأسماء. وقف أمامي لا يكاد يختلف عن صورته التي عرفتها وأنا ابن ست سنوات. هل كان محافظاً على شبابه الى هذا الحد؟ أم أن في الأمر خداع بصر، أو خداع ذاكرة؟ لست أدري.

هذه المدرسة كانت شيئاً وسطاً بين الكتاب والمدرسة. لا هي هذه تماماً ولا تلك تماماً. كان

منهجها كمنهج الكتاتيب. والمادة الأساسية فيها القرآن الكريم. لكننا فيها أيضاً تعلمنا الأعمال الحسابية الأربعة، بل وشيئاً من الهندسة، فتعلمن الخط المستقيم والمنحني، والمنكسر. فيها تعلمنا أناشيد. وفيها لعبنا على المتوازيين وعلى الحلق. ولعلها، من هذه الناحية، كانت أكثر تقدما من مدارس الحكومة نفسها، لا في تلك الحقبة فحسب، بل حتى اليوم. وكان للمدرسة باحة داخلية واسعة قل مثلها في المدارس.

كان اسماعيل افندي المدرس الأساسي، يساعده مؤذن الجامع القريب، الشيخ رسول الذي كان مدرساً وفراشاً وبائعاً للتفاح المحلى بالسكر في نفس الوقت.

بدأنا بقراءة "الصبورة" وحفظها. والصبورة كراس صغير ما تزال صفحاته مطبوعة في ذهني. صفحته الأولى تبدأ بالتعويذة ثم بالبسملة. ثم بقوله تعالى "رب يسر، ولا تعسر، رب تمم بالخير". يليه. وما زلنا في الصفحة الأولى، أحرف الأبجدية جميعاً مرتبة في مربعات. يلي ذلك صفحات فيها نفس الألفباء. لكن بالفتح في صفحة، وبالضمة في صفحة، وبالكسرة في ثالثة. ثم حروف الألفباء مرتبة على اسلوب "ابجد هوز". ثم صفحات فيها جميع الادعية التي يتلوها الانسان في صلاته. فإذا حفظنا هذا كله، بالتكرار الذي لا يعرف الملل ولا الراحة، وقرأناه وكتبناه، انتقلنا الى القرآن الكريم نتعلمه، ونختمه قراءة، ونحفظ سوره القصار غيباً.

إن نظريات التربية الحديثة ترفض هذا الأسلوب في التعليم القائم على الترديد الجماعي والتكرار. واسمحوا لي أن أشك، مجرد شك، ودون أن أناقش، في صحة هذا الرفض، وفي تفضيل الأساليب "الحديثة" في تعليم الاطفال.

ومهما يكن من أمر، فقد تعلمنا، وتهذبنا، وختمنا القرآن، الذي لا يختمه هذه الأيام أي طالب إلا إذا قرأه خارج المدرسة بتأثير أبويه أو أصدقائه أو شيخ جامعه، بهذا الأسلوب. يقال إن هذا الأسلوب لا ينمي الشخصية (؟). وأقول إن الذي يقتل شخصية الطالب الصغير هو حصره المستمر، وحصر تدريسه، في الصف وفي المدرسة، لا نوعية كتاب التدريس. ولقد رأيتكم في صفوفكم الأولى وفي رياض الأطفال، وصدقوني حين أقول إنني لست مقتنعاً بأفضلية أساليب التعليم الحديث، إلا إذا اخذناها ككل، أي تعليم، مع لعب موجه، مع إثارة إهتمام، مع دروس خارج الصف، مع زيارات لمعالم البلد، مع رحلات متعددة، مع صلات حميمة بالمعلم. أين مدارسنا من هذا كله؟

نواه صغيرة

ربما أخذت من المدرسة، وقد دخلتها مبكراً، جذوري المتدينة. فنحن لم نتعلم فيها القـرآن فحسب، وإنما كانت المدرسة تشجعنا على الصلاة في المدرسة، وعلى الذهاب الى الجامع القريب (جامع الأمام؟) لتأدية الصلاة الجامعة، لا سيما صلاة التراويح في رمضان.

لكن المدرسة لم تكن وحدها في تجذير هذا التدين. فقد كانت أمي تقية ورعة، لا تكاد تترك صلاة أو صوماً مفروضاً أو سنة، وتكاد تقرأ من القرآن صفحات كل يوم، وتحفظ كثيـراً مـن الأدعية، وتقرأ بعضها من كتاب "دلائل الخيرات" حيث ثمة دعاء للسفر، وآخـر للـشفاء مـن المرض، وثالث لأستبعاد الشيطان، وهكذا..

مع ذلك، ولحسن الحظ، كانت متفتحة العقل. لا ترى تضارباً بين دينها وورعها وبـين أن تتقن العزف على العود، أو أن تتبع آخر الموضات في اللباس أو في قص الشعر ما دام محتشماً. فقد كانت من أوائل من قصصن شعرهن "شاليش" في دمشق، ومن أوائل من تابع تطور الملاءة السوداء من الملاءة اللف، الى "البلرين" الى الكاب والحجاب الشفاف، الى السفور في الأربعينات. لا ترى في ذلك حرجاً، لا سيما وهي تخيط ثيابهـا بنفـسها، وتتـابع آخـر الموضـات فـي "الجورنالات" التي كانت ترد الى السوق.

كان إسلام والدتي "عثمانياً" ولسوف يستنكر بعض الذين لم يفتح الله عليهم هـذا التعبيـر. فليس في الأسلام إلا إسلام واحد هو الذي أوحي بقرآنه وتعاليمه الـى سـيدنا محمـد، وأمـر بالتبشير به ونشره على الملأ. إسلام مستند الى القـرآن، وحـي الله، والـى الـسنة، سـيرة الرسول الكريم. ولكن هؤلاء المستنكرين لا ينبغي أن يسوءهم التمييز بين "الأسلام" وبين "مفهوم الاسلام" كما فهمه أو يفهمه أو كما طبقـه ويطبقـه أي جيـل أو قـوم أو مجموعـة أو فـرد من المسلمين. فالأسلام واحد، ولكن مفهوم الاسلام عند الملأ مختلـف. وهـذا الاخـتلاف لـم

ينشأ في ادوار الأنحطاط فحسب، وإنما نشأ بعد وفاة الرسول مباشرة، ثم إتخذ مسارات مختلفة في عهد الرقي وفي عهود الأنحطاط، مثلما إتخذ مسارات مختلفة في مناطق العالم المختلفة. فنشأت المذاهب الأسلامية المتعددة، وانتشر بعضها في مناطق من الدولة الاسلامية وانحصر في مناطق أخرى، بل ونشأت في مفهوم المذهب الواحد نفسه مفاهيم متعددة تعدد مراحل الزمان ومناطق المكان، متأثرة، في كل شعب أو فئة أو منطقة، بما لكل منها من تراث موروث في عقولها، وطبائع عميقة في نفوسها.

فاذا ما قلت إن إسلام أمي كان عثمانياً، فانما أعني أنه كان إسلاماً سنياً حنفياً مضافاً اليه كثير من الخرافات والأساطير، بل وبعض العادات التي قد تجد طريقها في كل عهد ومنطقة الى كل دين فتصبح، في نفوس الناس، إن لم تصبح في كتب الدين نفسه، جزءاً من التراث الديني ذاته، بل قد تتحول، لا سيما في عهود الانحطاط الحضاري وفي اوضاع جهل اللغة العربية، الى أن تكون الجزء الأهم من الدين.

كانت أمي لا تكاد تقطع فرضاً. ولكنها كانت تضيف" الى أوامر الله ونواهيه أوامر ونواهي أخرى، قد تكون مفيدة في ذاتها، ولكن العقلية العثمانية تسبغ عليها ثياب الحلال والحرام لتؤكد اهميتها. فالبيت لا يجوز أن يكنس أو يعمل فيه عمل ثقيل أيام الجمعة. وأيام الأسبوع لها خصائص دينية خاصة. فالسفر مستحسن في بعضها، مكروه في بعضها الآخر. وكذلك الغسيل. وتقليم الأظافر. وتقليم الأظافر هذا له بروتوكول خاص. فاليد اليمنى تسبق اليد اليسرى. والسبابة تسبق الأصابع الأخرى، يتلوها البنصر، فالأبهام، فالأصبع الوسطى، فالخنصر. وتجاوز هذا الترتيب حرام. كما لا يجوز تقليمها ليلاً. والتصفير بالفم بعد المغرب حرام. ووضع الحذاء أو الخف مقلوباً نعله الى الأعلى حرام. والقاء الماء أو أي شيء ثقيل، على الأرض، قبل أن نستأذن الجن بقولنا "دستور"، حرام وخطر في آن معاً. يضاف الى ذلك كله، طبعاً، الايمان بالأولياء، والتشفع لديهم إلى الله سبحانه، وإن كانت أمي، من هذه الناحية والشهادة لله، أفضل من غيرها بكثير، فهي لا تلجأ الى الأولياء والحجب إلا في الملمات القاسية جداً.

ليس في هذه الأوامر والنواهي الصغيرة، باستثناء ما يتعلق بالأولياء والحجب، في رأيي ضرر، بل أن في معظمها نفعاً ومنطقاً عملياً مفيداً. ففي بعضها ضرب من تقسيم العمل بين أيام الاسبوع، وتخصيص يوم الجمعة للراحة. وفي بعضها الآخر نظافة، أو ذوق، أو تنظيم، أو تهذيب، وإنما تعطى هذه الأوامر والنواهي الطابع الديني لتكون أفعل في أثرها، في عصر يكاد الوازع الديني فيه يكون الوازع الوحيد. وقد تستغربون أنني، حتى اليوم، ما زلت أقلم أظافري بالترتيب الذي علمتنيه أمي في طفولتي، وإنني، حيثما وجدت حذاء أو خفاً

مطّوباً قلبته، دون إنتباه مني، ليستوي على الأرض كما يجب أن يستوي!

هذه الجذور الدينية التي غرست في في سنوات عمري الأولى، بقيت آثارها، رغم أن نظرتي الدينية أصابتها تطورات عديدة في سنوات الشباب والكهولة تبعاً لتطوري العقلي. خلقياً وسلوكياً بقيت متأثراً بتلك البذور الأولى. ولعلها هي التي عصمتني من كثير من الأنحرافات، في السلوك الشخصي وفي السلوك العام، التي يتعرض لها كثير من الشباب، لا سيما الذين يخرجون فجأةً من مجتمعات منطوية منغلقة الى مجتمعات منشورة منفتحة. ولعلها هي التي جعلت العمل النضالي عندي عملاً أخلاقياً في الأساس، وأبعدته عن كل نزوع إنتهازي أو أناني أو مطمع شخصي.

أو ليس من الغريب أن يكون محمد رسول الكيلاني، حين كان يحقق معي وأنا سجين عنده، هو الذي كشف عن وجود هذه الجذور، وعن عمق أثرها في تكوين شخصيتي؟ ولكن هذه لم تكن المرة الأولى التي ينبئ فيها عن ذكائه وعن تعمقه في عمله!

مدفعية الفرنسيين

حياتي النضالية كلها دارت حول محور واحد، محور مقاومة الظلم، بجميع أشكاله وألوانه، سواء سميت هذا الظلم إستعماراً أو إمبريالية أو صهيونية، أو سميته إستغلالاً أو دكتاتورية أو فساداً.

ومن المؤكد أنني، في طفولتي، لم أعرف لهذه الكلمات معنى، بل لعلي لم أكن قد سمعت بها. ولكن القدر شاء أن المس الاستعمار لمساً عينياً في طفولتي، وأن يثير في نفسي مشاعر الخوف والجزع من جهة، ومشاعر الكراهية له والحقد عليه من جهة، وربما، لست أدري، نوازع التصميم على وجوب التخلص منه.

وأنا، حين أثير في ذاكرتي الآن مرحلة الشام هذه في حياتي، أستغرب أن تتجسد هذه الذاكرة في ذهني في "صور" أكثر مما تتجسد في "أحداث"، بإستثناء تلك الأحداث التي واجهنا فيها الأستعمار الفرنسي، أو، بالأحرى، التي واجهنا بها هو. ولعل غياب الأحداث وتوفر الصور يعود إلى أن تلك المرحلة كانت، بالفعل رتيبة، ساكنة، فاترة، ليس فيها من الحركة والتغيير إلا القليل. كان معلمنا في الكلية العربية في القدس، سليم كاتول، يقول: "ستتخرجون، وستتركون الكلية، وسيذهب كل منكم في درب. ولا تتوهموا أنني سأتذكركم. سوف أتذكر منكم، فقط، الطالب الممتاز، والطالب الخ... أما الباقون فسأنساهم". وكذلك أيامنا في الشام، لا كانت ممتازة ولا كانت متناهية السوء. فنسيت معظم أحداثها، لا سيما أن إنقطاعاً حدث بيني وبينها، بعد إنتقالنا الى عمان، فلم يكن بيننا وبينها تواصل يستدعي إستمرارها في الذاكرة.

إلا أحداث تعرض الأستعمار لنا ولحياتنا ولأستقرارنا ولنعمة خبزنا، فتلك أحداث

خرجت عن الرتابة، وبقيت في الذاكرة نافرة بارزة أذكرها دائماً بتفاصيلها.

أم هل كان ذلك لأنني، بعد أن كبرت وانغمست في بحر النضال، قد أغلقت، من غير وعي مني، كل ما لم يتعلق بخط حياتي الجديد، وأبرزت، بوعي أو دون وعي، ما كان يتصل بهذا الخط؟ أم أن هذا الذي شهدته من تعرض الاستعمار لنا بالأذى في طفولتي كان القاعدة التي بني عليها فيما بعد طريقي النضالي؟ بمعنى آخر، هل كان لخط حياتي المتأخر أثر في تعيين وعي الذاكرة الأولى، أم أن أحداثاً ترسبت في ذاكرة الطفولة قد صنعت لي حياتي المتأخرة؟ أين السبب هنا وأين النتيجة؟ لست أدري، ولا علم النفس يدري. وإن كانت مذاهب علم النفس المختلفة تزعم أن كلاً منها يدري، أما عندي أنا، المؤمن بتداخل عوامل الحياة وتعقدها، الكافر ببساطتها ووحدانية العوامل المحركة لها، فأرجح أن في كل من الفرضيتين قدراً من الصحة، وأن كلاً منهما سبب ونتيجة في آن معاً.

ومهما يكن من أمر، فان بإمكاننا اليوم أن نعرف أن الجو السياسي الطاغي في سورية في أوائل العشرينات كان جو الاحتلال الذي فرضته فرنسا، بعد فترة "استقلال" قصيرة نعمت بها البلاد في ظل حكم الملك فيصل، الذي ولدت أنا في فترة حكمه. لم أكن لأعي ما يجري من حولي. ولكن كانت حولي إشارات ما تزال تذكر بأيام الاستقلال. كان يلذ لي أن أضع على رأسي "خوذة الفلين" التي كانت لأخي الكبير، لبسها وهو طالب أيام الاستقلال، المبطنة من الداخل بألوان العلم العربي الأربعة. وكان هو يشرح لي "ظروف" هذه الخوذة الممنوع لبسها بعد الاحتلال.

كنا، كذلك، نردد، في المدرسة الأهلية، الأناشيد الوطنية العربية، التي تتغنى بالوحدة والاستقلال والملك فيصل:

أيها المولى العظيم فخر كل العرب

أو:

أنت سوريا بلادي أنت عنوان الفخامة

بينما تمنع هذه الأناشيد في المدرسة الرسمية التي التحقت بها من بعد، مدرسة عرنوس.

وربما سمعنا تعليقاً من أبي، أو من أمي، أو من أخي، عن الاستعمار، والاحتلال، والاستقلال، ثم عن الثورة والثوار. ولكن شيئاً من ذلك لم يثبت في ذاكرتي الى أن كان يوم ختمي للقرآن، يوم خبرت الاستعمار للمرة الأولى خبرة تجربة لا خبرة سماع.

كنت قد أتممت السادسة من عمري، وختمت قراءة القرآن الكريم. ولم يكن يوم ختم القرآن يمضي كغيره من الأيام العادية. فقد كان معلماً مهماً من معالم حياة الانسان، يستحق

أن نحتفل به في المدرسة وفي البيت معاً، وأن يشارك فيه طلاب المدرسة جميعاً. فخاطت لي أمي بدلة من المخمل الأسود على طراز البحرية، لألبسها في ذلك اليوم المهم، وأستعد الجميع للأحتفال.

كنا تلميذين ختمنا القرآن في يوم واحد. وكان الثاني فقيراً. فكانت حفلتنا إحتفالاً بكلينا، ذهبنا الى المدرسة. وقرأنا الصفحة الباقية من القرآن، وتلونا الأدعية اللازمة، وأنشدنا الأناشيد الوطنية. ثم انطلقنا في شارع الحارة، منشدين، وقد اصطففنا زوجاً زوجاً، نسير في انتظام عسكري، وعلى رأس المواكب أنا وزميلي، يحف بنا اسماعيل أفندي والشيخ رسول، يملأنا الزهو والفخار، متجهين جميعاً الى دارنا، لنلتهم "الندرمة"-أي الآيس كريم في لغة هذه الأيام- المعدة لهذه المناسبة.

ولم نكد نقطع نصف الطريق الى الدار حتى فوجئنا بأصوات مريعة عنيفة لم نسمع بمثلها من قبل، تأخذ علينا اسماعنا من كل صوب، وتلقي في قلوبنا الرعب، وتحل الفوضى والهرج في صفوفنا. ولم يكن لنا من خيار غير أن نطيع معلمنا ونتجه ركضاً الى دارنا في هلع رهيب. وتلقانا أبي على الباب، ورآني مخطوف اللون شاحباً، لا تكاد ساقاي تحملانني، ففتح ذراعيه وحضنني وقبلني، فرد الى شيئاً من هدوئي واطمئناني.

وسألته بلهفة الجزع الخائف: "ما هذه الأصوات يا أبي؟". وكانت مدفعية الفرنسيين تقصف دمشق وتهدم أحياءها. ولكن أبي قال مبتسماً: "هذه يا ابني مدافع، يطلقونها إحتفالاً بختمك قرآن". ولست أدري إن كنت صدقته. ولكننا دخلنا جميعاً الى الدار نحتمي بها. وهرعت الينا أمي بطاسات الرعب النحاسية المنقوش عليها آيات من القرآن الكريم، تسقينا من مائها، وترد روحنا الينا، حتى هدأ روعنا، واطمأنت أفئدتنا. وتوقف القصف. ووزعت الندرمة. والقيت خطاباً محفوظاً يقول في مطلعه: "أنا عربي، ولدت أمي عربي.." والقى التلميذ الآخر خطاباً كذلك. وانتهى الحفل بدعاء تلاه علينا الشيخ رسول. وانصرف كل الى شأنه.

كان ذلك أول لقاء مباشر لي مع الأستعمار. كنت قبل ذلك، قد رأيت جنود السنغال، و "الصباحي" المغاربة، وذوي الطرابيش الحمراء من جنود الفرقة الأجنبية، أو الجنود الفرنسيين أنفسهم، ولكن صورهم انطبعت بعد هذا الحادث في نفسي مرفوقة بأصوات المدفعية المرعبة. ومنذ ذلك اليوم أصبحت رؤيتي لهؤلاء الجنود مرعبة. وكنت كلما رأيتهم، وقلما يظهرون في حارة الورد، أكاد أتسمر في مكاني من شدة الخوف لا سيما إذا كانوا زنوجاً. لكنني لا أقف ولا أغذ السير. فأسير محافظاً على سرعة معينة في سيري لا هي بالبطيئة ولا هي بالسريعة،

متوهماً أنني بذلك أخفي عنهم خوفي وأخدعهم، فأتقي شرهم، وأتفادى أذاهم المستطير.

ربما كان تذكري لهذا الشعور بهذا الوضوح راجعاً الى إحساسي به هو نفسه بعد عشرين عاماً في القاهرة. وكان السير في شوارعها ليلاً تجربة مرهقة للأعصاب، وقد امتلأت بجنود الانكليز وجنود مستعمراتهم السكارى، المترنحين، الذين لا يرعوون عن الأعتداء على المارة طلباً لعلبة سجاير، أو شلن. فكنا ننزل الى شارع فؤاد أو سليمان باشا مجموعات، حتى نتقي شرهم، ونأمن اعتداءاتهم.

بين البساتين

وإن هي إلا أيام ويجبهني الاستعمار من جديد، ويترك هذه المرة أثراً جسدياً، صغيراً نعم، ولكن باقياً لا يمحى في سبابتي اليسرى.

كنا في رمضان. وكنت قد صمت ذلك اليوم للمرة الأولى في حياتي. ألم أختم القرآن؟ وماذا إذا لم أكن قد أتممت السابعة من عمري؟ أصررت على الصيام وصمت. كان الوقت قد قارب المغرب. وأمي تهيء لنا الطعام في المطبخ. ونفذ من عندها الكاز. فحملتني زجاجة وأرسلتني لأملأها كازاً من البقال الموجود في رأس الحارة. وانطلقت مسرعاً بقبقابي الخشبي على أرض الحارة المرصوفة بالحجارة المكورة. وما كاد البقال يبدأ في ملء الزجاجة حتى دوت طلقات نارية متتابعة من أحد طرفي الشارع. فناولني الزجاجة، وهرع هو الى إغلاق دكانه، ووقفت أنا مشدوداً الى الأرض. مشدوهاً بما يحدث، لا أدري ما أفعل. قال: "ماذا تنتظر؟ أسرع الى الدار. الثوار. الثوار. أتى الثوار". لكنهم لم يكونوا الثوار فحسب. فسرعان ما امتلأ الشارع بالجنود الزنوج يطلقون الرصاص يميناً ويساراً. أسرعت الى الدار، أسابق الريح وكيف أسابق الريح وفي قدمي قبقاب، وفي أرض الشارع حجارة مرصوفة مكورة، وفي قلبي هلع؟ تزحلقت. وسقطت على وجهي. وكسرت الزجاجة. وجرح إصبعي. ونزف الدم. ووصلت باب الدار، وإذا بأمي تنتظرني بلهفة.

ويومذاك فهمت أكثر من ذي قبل ما يحدث في البلد. ثمة إحتلال. وثمة ثورة. ثمة فرنسيون "كفار" كما كانت تسميهم أمي، وثمة ثوار عرب مسلمون. وهؤلاء الكفار كادوا يقتلونني.. وعلي أن أكرههم وأن أحب الثوار. هكذا قالت لي أمي.

كان بيتنا في أواخر حارة الورد. وحارة الورد متصلة من خلفها ببساتين الغوطة والغوطة مليئة بالثوار. والفرنسيون يحتلون المدينة. ومنطقتنا أصبحت منطقة قتال. وانتقلنا من بيتنا الذي أحببته كثيراً الى آخر في نفس الحارة، ولكن يبدو أنه كان أكثر أمناً، وأعطى أسواراً،

وربما أرخص، فقد كان عمل أبي قد بدأ يتناقص، وبدأ يفتش عن عمل خارج سورية.

لكن هذا الانتقال لم يفدنا كثيراً. فقد أصبحنا ذات يوم، وإذا بالدخان الأسود يملأ سماء الحي. قال أبي: "لا بد أن الفرنسيين حرقوا بيوتاً من أطراف الحي، يلجأ اليها الثوار". وخرج من البيت يستطلع الخبر. وسمعنا أصوات أجراس المطافيء تقترب. ورأيت سيارات الأطفاء الحمراء للمرة الأولى في حياتي، ورجال الأطفاء بخوذهم المعدنية الصفراء اللامعة، واقفين بالقرب من باب دارنا، عاجزين عن الوصول الى مكان الحريق، لأن بقية الزقاق كان مسقوفاً بعقود لا تسمح لمثل هذه السيارات بالمرور.

وعاد أبي مكفهراً، محتقن الوجه. وأمرنا جميعاً بالتهيؤ للرحيل. فالحريق قريب. ومحاولات السيطرة عليه أخفقت. وثمة خشية من انتشاره انتشاراً يلتهم الحي كله. فبيوت الشام القديمة مبنية كلها من خشب وطين وتبن، لا قبل لها بمقاومة الحريق أو حصره. وانطلقنا، نحن الأطفال، نحمل ما جمعته أمي في صرر مما ظنته أهم من غيره من لباس، ونتجه نحو بيت الشيخ عزة الأسطواني، قاضي دمشق أو نقيبها وصديق والدي، نبيت عنده تلك الليلة إذا لم يصل الحريق الى داره نفسها. ولكن الله سلم، إذ قضي على الحريق قبل أن يصل الى دارنا. فعدنا بحمده تعالى. ولكن أن إستقر رأي أبي على أن نجد بيتاً آخر ونغادر الحي كله الى حي أكثر أمناً وسلامة.

ولست أدري ما الذي أوحى اليه أن هذه الدار الجديدة الواقعة بين البساتين في منتصف الطريق بين الجسر الأبيض وحي الشيخ محي الدين ستكون أكثر أمناً وسلامة. لقد تغيرت اليوم معالم تلك المنطقة وأصبحت مليئة بالبيوت وبالسكان وبالحوانيت. ولكن حين سكنا نحن عام ١٩٢٦ كانت هذه العمارة، التي يشكل بيتنا نصفها، العمارة الوحيدة في وسط بساتين تحيط بها من كل جهاتها، وتقع على الطريق العام، وتبعد نصف كيلومتر على الأقل عن أقرب بناء اليها. يجاورنا في سكناها مالك العمارة نفسها. وكان حرياً أن تكون هذه الدار من أجمل ما سكنا من دور بالنسبة الينا، نحن الأطفال على الأقل، لما تتيحه لنا من امكانات للعب والركض وتسلق أشجار التوت والجوز، ولما تشرف عليه من خضرة يانعة تبدأ من الدار نفسها وتمتد الى الغوطة كلها، لا سيما حين نتسلق الدرج الى سطح الطابق الثالث فتصبح دمشق كلها، بغوطتها ومدينتها، ممتدة أمامنا كالكف المبسوطة، في منظر من أجمل مناظر الدنيا.

ولكن كيف كان ممكناً أن ننعم بهذه الدار والثورة السورية في أعنف أدوارها، والثوار يحتلون الغوطة، والشيخ محي الدين من معاقل الثوار، والفرنسيون يلاحقونهم من جميع الجهات؟ والجسر الأبيض تحول الى ثكنة من ثكناتهم؟

جلسنا في اليوم الأول لسكنانا، بعد أن رتبنا حوائجنا في الدار ترتيباً أولياً، في غرفة في الطابق الثاني مطلة على الشارع العام نأخذ قسطاً من الراحة بعد تعب الأنتقال. وكان أبي قد سافر الى عمان يستطلع أمر الوظيفة الجديدة. وإذا برصاصة تخترق النافذة الأولى المطلة على الشارع، وتمرق منها لتخترق من بعدها زجاج النافذة الخلفية المطلة على فناء الدار، وتمر من الفناء لتخترق نافذتين أخريين متقابلتين في الغرفة الخلفية، وتضيع في البستان. زجاج أربع نوافذ متتالية كسر في اليوم الأول من سكنانا. وكان من الممكن أن تقضي الرصاصة على أي منا لو أن مسارها كان أقل إرتفاعاً ببضعة سنتمترات.

ثم ما لبثنا أن اكتشفنا، بعد أن سكنا، أنه كان على من يبغي منا النزول الى المدينة أن يحصل على "وثيقة" تسمح له باجتياز حواجز الأمن الفرنسية في منطقة الجسر.

ولم تكد تمر أيام على سكنانا، حتى جاء فوج من الجنود الفرنسيين وفحص المنطقة، وطلب قائد الفوج أن نسمح له بالصعود الى السطح ليتمكن من الفحص الدقيق، دون أن تنفع في منعه من ذلك إحتجاجات عمي الذي كان يسكن معنا.

وإذا بالجنود يقيمون أمام منزلنا تماماً استحكاماً ومركزاً للمترليوز ولمدفع هاون ونقطة مراقبة. وهكذا هربنا من القضاء والقدر لنقع في قضاء وقدر أفظع. وكانت تلك هي الطامة الكبرى. لم يكن ينقصنا غير أن يعسكر أمام بيتنا مباشرة فوج من جنود الأستعمار، وعلى شمالنا حي الشيخ محي الدين معقل الثوار، وعلى يميننا الجسر الأبيض يتمركز فيه الفرنسيون، وأمامنا تمتد الغوطة التي تدور فيها المعارك الطاحنة، والرصاص والقنابل تلعلع من حولنا. ونحن لا نجرؤ على النوم إلا في القبو، ولا على الخروج من المنزل إلا لضرورة قصوى وحين تهدأ الدنيا من حولنا. والجنود الذين كان معظمهم من الأقليات المجندة محلياً، يطرقون بابنا طالبين ماء أو حلة يطبخون فيها. أو يطرق بابنا ضابط فرنسي يطلب الصعود الى السطح حاملاً منظاره ليراقب المنطقة. وتتحول دارنا، شئنا أم أبينا، الى مخفر متقدم للفرنسيين، والى هدف للثوار. ونحن نقبع بين المسمار والحافر.

وفي يوم من الأيام شاهدنا رتلاً طويلاً من الجنود يمر أمام بيتنا متجهاً الى الشيخ محي الدين، وقضينا يومين أو ثلاثة لا تكاد أصوات الرصاص والقنابل تنقطع من ناحية ذلك الحي. ونحن لا نكاد نجرؤ على الخروج من القبو. ثم هدأت الاصوات. وانتهت الحملة. وطرق بابنا جندي أرمني من المعسكرين أمام دارنا، و "أهدانا" قطرميزاً من معقود السفرجل. واستلمته أنا منه. وفتحته أريد أن أتذوقه، وكان منظره شهياً يفتح النفس، وإذا بأمي تركض نحوي وتتناول القطرميز من يدي، وتصرخ في وجهي: "إرم بهذا القطرميز ومحتوياته كلها في البستان. وإياك أن تذوق منها لقمة واحدة. الا ترى أنه مال المسلمين، ينهبه الكفار، وأن أكله

حرام؟ وإذا سألك الجنود عنه فقل قد أكلناه". وفعلت. وقضيت ساعات أسائل نفسي كيــف كنــت على وشك أن أرتكب معصية كبرى بأكل مال المسلمين الذين نهبه الكفار.

ولكن إقامتنا في هذه الدار لم تطل. فما كان ممكناً أن نستمر على هذا المنوال. ويبــدو أن والدي في عمان قد دري بما جرى، وأسرع إلينا يفتش لنا عن دار أخرى نسكنها. وانتقلنا الــى دار في حارة في عرنوس كانت آمنة فعلاً لم نشهد فيها من آثار الحرب شيئاً، وإن كانت أكثــر تواضعاً من كل الدور الأخرى التي سكناها من قبل. وبقينا فيها حوالي عام ونصف. ومنها انتقلنا الى عمان.

خصلة جديدة

إن إنتقالنا الى عمان نفسه كان، كما قلت، نتيجة من نتائج مواجهة الأستعمار لنا حتى وإن لم نواجهه نحن. فأبي لم يلتحق بالثورة. ولكن مجرد أن له صلات بكثير من رجال الثورة، وأن عيادته كانت العيادة البيطرية الوحيدة في دمشق في عهد كانت فيه وسيلة الانتقـــال والاتـــصال الوحيدة المتاحة للثوار هي الخيل، كان مدعاة تجعله موضع شبهة ومراقبة وتحقيق متـــوال مـــن السلطة، وأغلقت مداخل دمشق. بل أصبح التنقل بين أحيائها يحتاج الى "وثيقة" وكانت نتيجة ذلك كله أن توقف عمل العيادة توقفاً شبه تام. واضطر أبي الى التخلي عنها. ولم يعد لنا من مـــورد غير معاش التقاعد الذي قرره الفرنسيون للمسرحين من الجيش، والذي لم تكن له علاقـــة بمـــا يستحقون فعلا من معاش تقاعدي، و لم يكن يقوم بأود أحد.

و في انتقال أبي، و انتقالنا من بعد، إلى عمان بالذات، تبرز خصلة جديدة من خصال أبي. فقد كتب إلى كل من حكومات العراق و الاردن و فلسطين. و يبدو أن حاجة هذه الأقطار فـــي الأطباء البيطريين كانت شديدة. فقد تلقى عروضا من الحكومات الثلاث. و لكنه قبل الأقل مرتبا! فقد قبل أن يكون مديرا لدائرة البيطرة في الأردن بمرتب يبدأ بخمسة وعشرين جنيهاً تزيد جنيها كل سنة حتى تصل الى الثلاثين، و اعتذر عن قبول وظيفة العراق مع ان مرتبها كان خمـــسين جنيها، لأنه كما قال لي فيما بعد، سوف يكون مرؤوساً لمن كان أقل رتبة، و لأن جو بغداد الحار لا يلائم صحته. و كذلك اعتذر عن قبول وظيفة فلسطين، التي كان مرتبها أربعين جنيهـــاً، لأن رئيسه فيها سيكون انجليزياً. و هكذا قبل أن يكون "مديرا" بخمسة و عشرين جنيها، و لم يقبل أن يكون "مداراً" بأكثر من ذلك.

و لقد كان يروي لنا قصة ذلك المختار في قرية من قرى طرابلس الشام الـــذي اســـتدعاه القائمقام ليكون معاوناً له في طرابلس، فاعتذر قائلاً إنه يفضل أن يكون الأول في قريته على أن يكون الثاني في المدينة. ترى هل ورثت شيئاً من هذه الخصلة و هل أورثتها لكم؟!

و يبدو أنه في انتقاله الى عمان كان في عجلة من أمره. فهو لم يقبل بخمسة و عــشرين جنيها فحسب، بل إنه وقع تنازلا عن معاشه التقاعدي طيلة مدة عمله خارج سوريا. و لم يكتشف إلا بعد فوات الأوان أن هذا التنازل لم يكن ضروريا، و انه كان في إمكانه أن يستمر في استلام معاشه و استلام وظيفته الجديدة. و لكنه حين رفع الدعوى امام محكمة الـشورى فــي ســوريا لاسترجاع المعاش خسر الدعوى لا لأنه لا يتمكن من الجمع بين المعاشين، و لكن بــزعم أنــه تنازل عن التقاعد بملء ارادته، و أنه لا يحق له التراجع عن هذا التنازل الذي تبرع به.

صورة غامضة

تلك إذن كانت مرحلة حياتي في دمشق. مرحلة ذكرياتي عنها تبدو لي بعيدة كـل البعـد، كأنها ذكريات شخص آخر. لا تكاد تربطني بها رابطة. و حتى حين انتقلت إلى دمـشق، عـام ١٩٦٥، لأصبح فيها امينا عامًا للحزب، لم أشعر بأن هذه المدينة كانت مرتع طفـولتي، و لـم أشعر بذلك الحنين الذي يشعر به الانسان نحو بلد قضى فيها السنوات الثماني الأولى من حياته. و لولا بعض الشوق إلى دارنا الرحبة في حارة الورد لكنت كمن ينتقل إلى مدينة لا صلة له بها.

حتى مدرستي الثانية فيها، مدرسة عرنوس، التي قضيت فيها عاماً و نصف عام. لا أكاد أذكر منها غير مكانها. فلا أذكر فيها معلماً و لا زميلاً في الصف.

قد يكون سبب ذلك انقطاعي عن دمشق، بعد انتقالنا منها، انقطاعاً شـبه تـام. إذ كانـت زيارتنا لها متباعدة. و كان أصدقاؤنا فيها قليلين. و لولا أن عمي الذي كان يسكن معنـا، بقـي فيها، لازداد انقطاعنا عنها.

و قد يكون السبب أننا عشنا فيها عيشة منطوية. لا أقارب، لا جيران دائمين. و المعارف محدودين بمن كانوا مثلنا، ضباطاً متقاعدين متزوجين من زوجات تركيات.

لذلك يبدو غريبا أن تقف، من بين هذه الصور الغامضة الضبابية في ذكرياتي، صور مـا فعله الاستعمار بنا بارزة بوضوح و جلاء، حية و كأنني لم انس تفصيلاً مـن تفاصـيلها. هـل كان أثرها، في ذلك الوقت، عميقاً إلى هذا الحد؟ هل نشأ منها فعل انعكاس مشروط، رسم لي فيما بعد طريق حياتي؟ قد يقال ذلك، لولا أن عشرات الألوف ممن كانوا في مثـل سـني قـد مروا على نفس التجربة أو التجارب و لم ينتهوا، فـي رجـولتهم، إلـى مـا انتهيـت اليـه بالضرورة. و بالتالي فإن من الصعب، في مثل هذه الأحوال، أن نحدد أسبابا معينـة بالـذات

تقود الى نتائج معينة بالذات. وفي الحقيقة فإن الانسان أكثر تعقيداً من أن يحـــدد تـــصرفه وسلوكه قانون نفساني واحد، أو مجموعة صغيرة من القوانين النفسانية. ويبقى علم النفس، فـــي أحسن أحواله، علماً احصائياً محضاً.

ان الفرد اذاً يجعل الانسان نتاج سنوات طفولته الاولى، ويقـــول أن المعـــالم الأساســـية لشخصيته ترسم في هذه السنوات. ويكاد علماء النفس، ما عدا البيولوجيين والفسيولوجيين منهم، المؤمنين بالوراثة ايماناً مطلقاً، يتفقون على هذا مهما تكـــن مـــذاهبهم. ويـــؤمن الماركـــسيون البافلوفيون بأن الأنسان إبن طبقته وبيئته الأجتماعية المباشرة، ومهما يكن من أمر فإنني لا أرى أن في طفولتي ما مدني بأسباب الشخصية الثورية غير شخصية أبي، وموقفه الاخلاقـــي، ومـــا خلقه فينا من احترام للذات، وحفاظ على الكرامة، ورفض للاستجداء. وغير تلك المـــشاهد مـــن عسف الأستعمار وتدخله في أدق شؤون حياتنا.

على كل حال، لست هنا لأناقش أي رأي، أو لأقطع بأي رأي محدد. إنما أنقل هنا تجربتي نقل وصف لا نقل تحليل وتركيب، وعلينا فوق ذلك أن نذكر الفرق الشاسع بين الحيـــاة الذاتيـــة وحياة المجتمعات، أي بين التغيرات المؤثرة في الاشخاص، والتغيرات المؤثرة في المجموعات الكبيرة. إن حديثنا عن طباع طبقة أو قومية أو طائفة أو أهل مدينة أو نقابة، لا يعني أننا نتحدث عن طباع كل منتم الى هذه المجموعة أو تلك، وإنما نتحدث عن طابع يكاد يكون مشتركاً بـــين العدد الأكبر من المنتمين الى المجموعة، ولا نتحدث عن طابع كل شخص منتم اليها.

حتى الأدب الماركسي نفسه، الأكثر حدية وقطعاً في بحث طبائع المجموعـــات البـــشرية الطبقية في فكره الفلسفي والسياسي والتاريخي يترك مجالاً واسعاً في فنونه المختلفة لعقل الفـــرد الانساني المتميز. أذكر أنني شهدت في القاهرة فلماً سينمائياً سوفييتياً في الخمسينات يروي قصة خمسة جمعتهم احداث ثورة ١٩٠٥. كان أحدهم فحسب شيوعياً قبل قيام الثورة، ثم انتهى الخمسة الى الالتحاق بالحزب، ولكن كل منهم لسبب خاص به مختلف عن الآخر، لا علاقة مباشرة لـــه بالفكر السياسي. فالفتاة أصبحت شيوعية لأنها أحبت الشاب الثوري، والحداد أصـــبح شـــيوعياً بعد أن خبأ الشيوعي وفتاته في حانوته بدافع الشرف والكرامة ونصرة الـــضعيف المـــضطهد. ورجل الدين أصبح شيوعياً بعدما رأى الفرق بين تصرف الشيوعيين وســـلوكهم فـــي الـــدفاع عن المضطهدين والفقراء وبين تصرف الجنود من جهة وزملائه رجـــال الكنيـــسة المـــوالين للدولة الظالمة من جهة اخرى. إن الفلم قد حرص، لأنه ظهر أيام ســـتالين، علـــى أن يكـــون الخمسة كلهم، رغم اختلاف دوافعهم، من طبقة البروليتاريا. ولكن النقطة الهامـــة فـــي الفلـــم كله هي أن دوافعهم لا علاقة لها ببروليتاريتهم، بل علاقتها بإنسانيتهم.

المهم في هذا الأمر كله أنني، إذ أصبحت في قابل أيامي مناضلاً ثورياً، فإن قاعدة هذا المصير في طفولتي لم تقم على القواعد العامة التجريبية المتعارف عليها في الفكر السياسي. لم أكن بروليتارياً. لم أكن فقيراً ، عادة، وإن مرت علي من بعد فترات فقر طويلة. لم أكن شريراً أو قبضاياً أو من أولاد الحارات أو المشردين الذين يعتقد ماوتسي تونغ أنهم مادة الثورة الحديثة. وإنما كنت ابن عائلة متوسطة، مركزها الأجتماعي أعلى قليلاً من مستواها المالي، متعلمة، "مهذبة" بالمعنى العثماني للتهذيب، قليلة الصلات الاجتماعية.

ثلاثة عوامل في رأيي قد تكون- و "قد" هي حرف تقليل كما تعلمون- وراء توجهي النضالي الثوري فيما بعد. موقفي الأخلاقي، الذي أخذته وراثة أو تربية من والدي، وانقطاع جذوري العائلية والعشائرية والمحلية، وما ترسب في نفسي من مظاهر العسف الاستعماري.

الباب الثاني

الجامعات العربية امكنة دراسة،
الجامعة الاميركية مكان لحياة جامعية شاملة

الوان الحياة

خرجت من باب الجامعة فاذا بي لم اغادر جو المدينة الجامعية، والحياة الجامعية، وان غادرت سورها وبابها. فأمام باب الجامعة يقع مطعم "فيصل" الذي له ذكريات لاجيال متعاقبة من طلاب الجامعة منزلة لا تكاد تقاربها منزلة. انه ليس مطعماً فحسب، كما اسمه، فهو المنتدى الذي سمع من المناقشات، والمطارحات، والمنازلات الفكرية والعاطفية، ما لا اظن ان منتدى آخر، في الوطن العربي كله، سمع مثله او حفل به.

فاذا انطلقت يميناً او شمالاً فأنت في شارع "بلس"، (وبلس هو منشئ الجامعة فيما اظن او احد رؤسائها الاوائل)، وهو ليس الا امتداداً للمدينة الجامعية، يعكس فيه كل شأن من شؤون بنائها وحياتها، وربما يضطرب فيه، ما يضطرب في الجامعة، واذا بالجامعة الاميركية تمتد في تشعباتها وتفرعاتها لتصبغ "رأس بيروت" كله، بمنازله وسكانه وحوانيته وعاداته وتقاليده، بصبغة الجامعة الاميركية التي اصبحت نمط حياة ونموذج تفكير اوسع بكثير من مجرد معهد للدراسات الجامعية.

انها تقدم للطالب العربي، هذا الطالب القادم من بيئاته المنغلقة المتخلفة التي لم تكد تتفتح بعد على الحياة الحديثة العصرية الا في زوايا صغيرة شاذة من اركانها، اسلوب تفكير، واسلوب حياة، واسلوب فهم، واسلوب تقويم للامور والقضايا المحيطة به، ما كان بامكان اي معهد عربي في ذلك الوقت ان يقدمه.

فلا عجب اذن، في انه قد كان لهذه الجامعة، في النصف الاول من هذا القرن على الاخص، الاثر الكبير الذي نعرفه لها في حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية، في منطقة "الهلال الخصيب" على الاقل. وقد ساعد في تضخيم هذا الاثر انه لم يكن في كل وطن

العربي يومئذ من جامعات بالاضافة الى الجامعة الاميركية، غير الجامعة اليسوعية في بيروت، وجامعتي دمشق والقاهرة.

جو الجامعة كان جواً اهم ما فيه ليس ما يقدمه من علم، بل ما يتيحه للطالب من سبل تساعد على فتح عقله وقلبه وجسمه وعلاقاته. فيخرجه من جو القيود المعتم الذي كان المحيط العربي كله يمر به، ويضعه في جو جديد كل الجدة.

هنا نتلقى العلم، ولكن ايضاً، نمارس نشاطات عقلية، في المكتبة، في المحاضرات، في الندوات، في خطب الكنيسة، في الوست هول، في المناقشات العادية بين الطلبة والاساتذة، وبين الطلبة بعضهم مع بعض. هنا نمارس نشاطات رياضية، كرة قدم، سباحة، بولنغ، تنس، كرة الطاولة، بليارد، او نتفرج عليها في الاقل. هنا نمارس نشاطات فنية، تمثيلاً، وغناء، وموسيقى، عربية واجنبية. هنا نتفتح سياسياً، نشارك في "العروة الوثقى" في التنظيمات الطلابية، في المناقشات السياسية. هنا نتفكك من القيود الاجتماعية التي احاطت بك عمرك كله، فتنشئ صداقات وعلاقات، وتكرس مع فتيات، وتحب من قريب احياناً، ومن بعيد اكثر الاحيان.

حياة جديدة كانت تبدو لنا لا سيما نحن الذين جئناها من جو نصف بدوي، نصف ريفي، نصف مديني كالاردن، جنة من الجنان ونعيم لا يطاله نعيم.

فاذا خرجت من جو الجامعة، وجو شارع بلس، وجو رأس بيروت، فثمة بيروت نفسها. صحيح انها كانت مدينة صغيرة لا تقاس ببيروت التي تعرفونها اليوم ولكنها، بالنسبة الى ما عشنا فيه من مدن، كانت شيئاً عجيباً.

لم يكن شارع الحمرا موجوداً بعد. ولكن كانت هناك ساحة البرج وما يحيط بساحة البرج من سينمات ومطاعم وصالات وملاه وحوانيت حديثة ومقاه، وفوق ذلك كله ما يضطرب فيها من بشر، من ناس، من الوان الحياة التي لم نعهد مثلها في عالمنا الصغير السابق، عالم عمان او دمشق او القدس العربية (فالقدس اليهودية كانت عالماً بعيداً عنا لم نتجه ولم نطرق ابوابه). كانت عمان اهلنا. كانت القدس اكلة كنافة في باب خان الزيت، وصلاة في المسجد الاقصى، وكانت مدينة اكبر من بيروت، ولكن اقل تطوراً منها.

كانت سينما الروكسي ومطعم ابو عفيف، ومشوار في باب ادريس، وتسكع في شارع الطويلة معايشة للحياة لم نعهدها من قبل.

وحملت كتبي، وبدأت دراستي، ولكن ثمة فرقاً كبيراً ان اصمم انا ووالدتي على ان نتابع الخط الذي رسمناه مع ابي حتى بعد وفاته، وبين انه نتمكن حقاً من متابعته، ان اهلي قد

شدوا احزمتهم، وصغروا بطونهم، وبذلوا جهدهم. وكان علي انا ان اشد حزامي واصغر بطني وابذل جهدي ما امكنني. ولكن مجال توفيري محدود.

كان مجموع مصاريف الدراسة والكتب والمختبرات والحياة الداخلية والمطعم لا تقل عن خمسة وخمسين جنيهاً في العام، لا بد ان تدفع الى ادارة الجامعة. فليس من سبيل الى توفير بعضها، ولم يكن ثمة مجال للتوفير الا في مصاريف الجيب البسيطة. وما هو التوفير الذي يمكن ان احققه في مصروف الجيب، وانا لا ادخن، ولا اشرب، ولا اسهر في صالات بيروت؟

جاءني الفرج الاول حين زارني في الجامعة نديم البارودي، ونديم البارودي كان من حماة، وكان خريج الجامعة الأميركية في الزراعة، موظفاً مع والدي في دائرة الزراعة في عمان، وتلقيته بحرارة الغريب الذي يتلقى اول زائر من بلده. (وكان الى ذلك طويل القامة، اشقر الشعر، احمر الوجه، مشرق البسمة دائماً، خفيف الروح، حبيباً الى القلب). واخذني الى مطعم فيصل حيث لم نكن نجرؤ على الدخول الا نماماً، وطلب لي شوكولا غلاصه، وكنت اذوقه للمرة الاولى في حياتي وعشقته منذ ذلك اليوم، وقال: لماذا لا تسعى الى منحة؟ قلت: وكيف ذلك؟ قال: ان الجامعة تمنح بعض الطلاب المحتاجين منحاً مقابل اعمال بسيطة يؤدونها. قلت: ولكن دراستي في الطب تأخذ علي كل وقتي، فمتى اعمل؟ قال: لا عليك سأدبر الامر مع حبيب الكوراني، مسجل الجامعة، فهو صديقي.

في اليوم التالي ارسل لي حبيب الكوراني الذي عزاني اولاً بوفاة والدي. كان هو استاذ تصف حين استدعيت وابلغت بالحادث، ثم اخبرني ان نديم قد اخبره بوضعنا، وان اقصى ما يمكنه ان يقدمه لطالب مستجد هو اعفائي من نصف رسوم الدراسة، أي من ثلاثة عشر جنيهاً في العام، مقابل ان اعمل اميناً لمكتبة كلية الطب لمدة ثلاث ساعات مساء كل سبت.

وطرت من الفرح فالمبلغ ليس قليلاً اذ أنه ربع المصاريف السنوية المدفوعة، والعمل بسيط، ولا يكلفني تضحية وقت دراستي. وليس من نوع الاعمال التي كنت اخشى ان يكلفني بها واضطر الى رفضها، كالعمل في المطعم او المطبخ او ما شاكل ذلك مما كان يضطر اليه بعض الطلاب. بقي علي ان اقتصد ما أمكنني في مصروف الجيب، وقد ارسل الله لي زميلاً وصديقاً لا يقل عني حاجة الى التوفير، هو وصفي حجاب، الذي رغم انه كان مبعوثاً الى الجامعة على حساب حكومة فلسطين، لا على حساب اهله مثلي، فقد كان المبلغ المخصص للبعثات لا يكاد يغطي المصروف وكان اهله عاجزين عن ان يمدوه بأي معونة اضافية، بل كان هناك من يزعم انه يرسل لاهله بعض ما يوفر من مصروفه. على كل حال، وضعنا، هو وانا، جبنتنا على خبزتنا، وقررنا خوض حياة تقشف محترمة.

والحقيقة هي ان الفرق بين المتقشف وغير المتقشف في الجامعة كان ضئيلاً جداً يكاد يبين. فقد كان بإمكاننا ان نلعب البلياردو والبولنج، وان نشتري الشوكولا غلاصه وانواع البوظة الاخرى التي يحفل بها مقهى وست هول، وان نحضر الحفلات المقامة في الجامعة، وأن نتفرج على المباريات، مقابل قروش لبنانية قليلة لا تقدم ولا تؤخر. ولعل التوفير الوحيد الذي حققناه، لو كنا نضحك على انفسنا لنقنعها باننا نوفر حقاً هو ان لا نأكل "الامبريال"، وهو اغلى انواع البوظة ويكلف ثلاثين قرشاً لبنانياً الا مرة في كل شهر، و "الرويال" وهو نوع آخر يكلف خمسة وعشرين قرشاً مرة كذلك في الشهر، ولا ندخل مطعم فيصل لتناول القهوة او البوظة إلا للطعام، الا حين تضطرنا الظروف، وغالباً ما نكون مدعوين، ولا نركب الترمواي الا في الدرجة الثانية، لندفع ثلاثة قروش فقط بدلاً من خمسة، ولا نجلس في سينما الروكسي الا في الصالة وبعد ظهر السبت ليكلفنا ثلاثة فرنكات، اما "ابو عفيف" ذلك المطعم الشهير في البرج، فلم ادخل اليه سوى مرة واحدة.

وهكذا تقشفنا! ولكن ما الذي يفعله الطالب الداخلي غير المتقشف في الجامعة اكثر من ذلك؟ في سنتي الثانية كان يساكنني في عنبر في "الكوليج هول" طالب في الاقتصاد كان يحتال على البواب او يرشوه ويسهر في الخارج ليقضي وقته في صالات بيروت وملاهيها. وكان يقال انه يكلف اهله ما لا يقل عن مائة جنيه سنوياً! وكنا نحن المتقشفين نستكثر هذا الاسراف، ونحن لا نكلف اهلنا سوى سبعين جنيها في السنة! ان بعضنا كان غنياً، وبعضنا فقيراً، ولكن الفرق في مستوى المعيشة داخل الجامعة كان ضئيلاً.

وبعد اشهر قليلة من بدء الدراسة تخلصت الى حد كبير، من "العمل" المطلوب مني مقابل المنحة، فقد بعث الله لي صديقاً وزميلاً هو المرحوم الدكتور عبد الله صلاح، كان رجلاً طيباً جداً و... دريساً جداً، لم يكن له شيء اسمه وقت فراغ. لم يكن يذهب الى سينما، ولا يحضر حفلة ولا ندوة. ولا يضيع وقته في مناقشات الطلبة العقيمة التي لا تنتهي، والتي هي، بالنسبة لنا، ملح الحياة بينما كنت انا مغرماً بهذه جميعاً.

قلت له: "يا صديقي... الست تدرس ايام السبت مساء؟".

قال: بلى.

وقلت: وهل يضرك ان تدرس في مكتبة كلية الطب بدل ان تدرس في غرفتك؟

قال: لا، لا يضيرني ذلك أبداً.

وقلت: فماذا لو اخذت مكاني في الاشراف عليها، وهذا الاشراف لا يتطلب منك أي

جهد؟ وانت لا تذهب الى الحفلات ولا الى السينما، وانا مغرم بها ولا احب ان احرم منها؟

قال: لا مانع لدي...

قلت للدكتور كورلني: اذا ما نشغلت يوما ما بعد ظهر السبت فهل ما يمنع من ان اجد من يحل محلي؟

قال: لا.

وهكذا استفدت من المنحة، واطلقت وقت راحتي من اسر العمل، وتحمله عبدالله صـــلاح، هذا الزميل الطيب الذي قابلته في مصر ايضاً.

في سنتي الثانية، اي حين اصبحت في الصف الاول الطبي، كان علينا ان نتناول طعامنـــا في احد المطاعم المنتشرة، في شارع بلس، اذ انتهى ارتباطنا بمطعم الجامعة الذي كان اجباريـــاً في "السوفومور". ان معظم الطلبة الأرستوقراطيين كانوا يتناولون طعامهم في مطعـــم فيـــصل. ولكن هذا المطعم كان غالياً جداً علينا، فقد كان طبق الطعام فيه يعادل سبعة عشر قرشاً لبنانيـــاً. ولم يكن سهلاً علينا ان ندفع مثل هذا المبلغ غير المعقول، فاهتدينا، انا وصديقي وزميلـــي فـــي عمان وفي القدس ثم في الجامعة المرحوم رياض الخطيب، الى مطعم صغير يجاور مستـــشفى كلية الطب، يقدم الطعام بسعر احد عشر قرشاً للطبق، ويملكه رجل اسمه الياس نجعازي.

الياس نجعازي هذا رجل لا يمكن ان انساه ما دمت حياً واظن انه نموذج من الناس كاد ان يختفي من بلادنا بعد ان جرتها تطورات الحياة الحديثة المعقدة في احضانها. كان لبنانيا جبلياً قحاً فيه كل طبيعة الجبل الاصلية وسماحته وقناعته. كان فيما اظن، قد تجاوز الاربعين. وكان عازباً يعيش، مع اخته العازبة ايضاً والتي تكبره في السن، في احدى غرفتي المطعم الصغير. وكـــان المطعم يشغل الغرفة الاخرى في تلك الدار الصغيرة المكونة من غرفتين ومطبخ، ولم تكن غرفة المطعم لتتسع لاكثر من اربع طاولات. احداها للخدمة، بحيث يضع عليهـــا الاطبـــاق الفارغـــة والكؤوس والملاعق والشوك وما اشبه، وثلاثتها الاخرى لجلوس من يأتي.

كان حريصاً، في اول السنة الدراسية على ان ينتقي اثني عشر زبوناً يطعمون عنده، طوال العام، يقنع بهم ويجهد ان لا يزيدوا، وان لا ينقصوا. سألته مرة: لماذا لا تـــسعى الـــى توســـيع مطعمك يا الياس؟ ان طبخك رائع ونظيف ولذيذ ومتنوع، ورخيص في نفس الوقت. وانا واثـــق ان زبائنك سيزدادون عدداً لو وسعت مطعمك فاضفت له، مثلا الغرفة الاخرى؟

قال: لا يا بني فانا اعيش مع اختي، واكسب من هذا المطعم طيلة تسعة اشهر في الـــسنة ما يكفيني عطلة الصيف التي اقضيها فـــي قريتـــي فـــي الجبـــل كـــل عـــام. فلمـــاذا اوســـع

عملي؟ ما الذي ابغيه من هذه الحياة سوى ان اجد مصروفي ومـصروف عائلتـي؟.. ولا تنسى انني اذا توسعت احتجت الى عمال ومساعدين، او اضطر الى بذل جهد يتعبنـي ويتعـب اختي فانا سابقي على هذا المطعم كما هو واحمد الله، وقبل يده وجهاً وكفاً ووضعهما على جبينـه علامة للشكر والحمد والقناعة.

في اواخر العام الدراسي كنت اتناول طعامي مع زميلي، اللذين كانا يسبقاني بعام، صلاح العنبتاوي وصالح برقان، واللذين كانا ايضاً من زبائن نجعازي. وسألاني ان كنت سأرشح نفسي لعضوية جمعية "العروة الوثقى" التي تجري انتخاباتها، في اواخر العام، للعام الثاني. قلت: لـن افعل، فالارجح انني لن اتمكن من متابعة الدراسة في العام القادم، فقد تراكمت الديون على اهلي، ولا بد لي من ايجاد عمل ما وترك الدراسة. وحاولا ان يقنعاني بوجوب الاستمرار في الدراسة وعدم هجرها مهما وجدت صعوبة في ذلك. ولكن هل القضية قضية اقناع واقتنـاع؟ استـحالة مادية، ومن اين لهما ان يعرفا ذلك؟

في اليوم التالي، كنت اتعشى وحدي، ولم يكن ثمة غيري في المطعم. تسلل إليّ نجعـازي بعد ان قدم لي طعامي وجلس بجانبي وقال: لقد سمعتك البارحة تقول لـصلاح وصـالح أنـك ستهجر دراستك في العام القادم بسبب ضيق ذات اليد، فلماذا تترك؟ الست تملك قـسط الجامعـة على الاقل؟ انا لا املك ان اعينك، ولكنني املك ان اقدم لك طعامك طيلة السنوات الاربع المتبقية لك، ولن اعتبر هذا ديناً عليك تسدده بعد ان تتخرج وتشتغل".

ولم اكن اتصور ان اسمع مثل هذا من رجل بسيط فقير مثل الياس. ادهـشني مـا قـال. ودفعني الى صمت طويل، لا اقول ولا اعمل شيئاً سوى ان اتطلع الى عيني هذا الرجل المليئتين بالطيبة المحضة. مسحت فمي وقبلته بين عينيه، وقلت بصوت متهدج: كيف؟ كيف يـا اليـاس تتحملني اربع سنوات كاملات عبئاً عليك؟ الا تخشى ان اتخرج واتنكر لهذا الدين الذي لا بد ان يرهق كاهلي؟".

قال: "اتظن انك اول من قدمت له هذه الخدمة؟ لقد قدمتها قبلك لفلان، وكان طبيبـاً فـي بيروت، وسدد لي دينه بعد تخرجه، وما يزال صديقي، وهو يزورني دومـاً وازوره. وقـدمتها لفلان الآخر، وكان طبيباً معروفاً في حيفا، ولم يرد لي قرشاً واحداً مما صرفته عليه... اتظن ان هذا يمنعني من ان اكرر خدمتي هذه مرة أخرى؟ انا اعرف انك طالـب نـاجح ومجـد. وانـه ليحزنني كل الحزن ان ارى من كان مثلك يعجز عن متابعة تعليمه لضيق ذات يده. فتوكل على الله.... ورشح نفسك للعروة... ولا تشغل بالك من ناحية الطعام".

مثل هذا الرجل، الذي لا يكاد يعرف عني سوى انني زبون في المطعم، كيـف يمكـن ان

ينسى؟ طبعاً، شكرته، وبينت له ان للمسألة اكبر بكثير من مجرد الطعام وان النيون تتراكم علينا، وان من غير المعقول ان استمر لربع سنوات اخرى واسرتي تعاني الحرمان.

زرت اليلس بعد ذلك بسنوات لكثر من مرة الى ان زرته مرة فاذا بـــه تـــزوج، ووســـع مطعمه، ما الذي غير فكره؟ لا ادري، ولكن هذه هي الدنيا، تبني قواعد عقلية للتصرف. ثـــم اذا بنا نتصرف ضد هذه القواعد!

في الجامعة كان لا بد لي من ان اخطو خطوات جديدة في نمو وعيي السياسي والفكري.

كان العلم كله في حالة غليان. وكان الوطن العربي يمر في تغيرات هائلة. وكان لا بد لهذا كله من ان يترك آثاره العميقة في الجو الطلابي في الجامعة الاميركية، لا سيما في ذلك العهـــد الذي لم تكن الولايات المتحدة فيه قد لبست ثوب الامبريالية العالمية بعد، ولا كانت الجامعة قـــد اصبحت اداة من ادوات هذه الامبريالية. بل لقد كان معروفاً عنها آنذاك انها القدر الذي تتـــضج فيه الدعوات العربية القومية لمثقفة، وتتكون فيه قيادات الحركات التحررية في المشرق العربي.

كان هتلر قد ظهر الى الوجود بقوة هائلة. ونجح في استقطاب اهتمام العالم بما يفعله فـــي بلاده. وكان لا بد ان يستجلب اهتمام العرب بالذات ليتابعوا هذه التجربة الفريدة في ذاتها.

الذي رسخ في ذهن الاجيال التي ولدت وعاشت بعد الحرب العالمية الثانية هو ان هتلـــر دكتاتور مجرم أفاك لم يترك خصلة سيئة في العلم الا التصق بها والتصقت به، حتى اصبح رمزاً للشر في كل الوانه.

ولم تكن صورته كذلك قبل الحرب العالمية الثانية، حتى في العام الغربي الليبرالي الـــذي خلق له هذه الصورة فيما بعد، فكيف بها في العالم العربي، الرازح تحـــت الاحـــتلال الغربـــي المتعرض للهجمة الصهيونية، المتخلف سياسياً وثقافياً واقتصادياً، وهو يشهد تجربة من تجارب الاحياء القومي والسياسي والثقافي والاقتصادي تجري امام عينيه؟

لقد ورث هتلر حكم بلد مقيد بقيود معاهدة فرساي التي فرضت عليه نتيجة هزيمته امـــام الحلفاء في الحرب العالمية الاولى. فالغى اعترافه بهذه المعاهدة وبقيودها. ثم ضم منطقة "السار" الغنية بالفحم والحديد والتي كانت قد وضعت تحت اشراف فرنسا لتعويضها عن خسائر الحرب.

وورث بلداً ضعف فيه الاقتصاد الى درجة الافلاس. وكان فيه لربعة ملايين عاطل عـــن

العمل. فجاء "بشاخت" ليصنع في المانيا معجزة اقتصادية في بضع سنوات تنقلها من حالة الى حالة مناقضة تماماً. أحيا الصناعة، وأحيا الزراعة، وبنى الطرق الواسعة، واعاد للمارك هيبته، وقيمته، واذا بالمانيا تصبح نموذجاً لدول العالم في الاحياء السريع.

وبنى جيشاً لم يكن له في اوروبا مثيل، بعد ان كانت المانيا عاجزة عن تحديث جيشها بسبب قيود معاهدة فرساي.

وتطلع الى توحيد الامة الجرمانية. وكان كثير من امم الدنيا يرى في هذا التطلع امراً قومياً مشروعاً. فبعد ان استرجع "السار" ضم النمسا الى المانيا، ثم سعى الى ضم الجزء الالماني من تشيكوسلوفاكيا المسمى بالسوديت. وكادت تنشب الحرب، ولكن تشمبرلين البريطاني ودلاديه الفرنسي اعترفا له، في اتفاق ميونخ بهذا الحق، ودخل جيشه لمنطقة. ولكن سعيه الى ان يسترجع ذلك الممر الذي كان يربط بولونيا بالبحر، ويفصل ايضاً بين بروسيا الشرقية وبقية المانيا، كان اكثر من ان تحتمله بريطانيا وفرنسا. وقامت الحرب.

في عام ١٩٣٦ استضافت المانيا الالعاب الاولمبية. وكانت تلك الاستضافة فرصة لمن يعرف المانيا قبل هتلر ولمن لا يعرفها، ان يشهد المعجزة التي حدثت في هذا البلد، في أربع سنوات فقط في حكمه وكان هو يريد للعالم ان يشهد. وكان فخوراً بما نجز، ودهش العالم فعلاً، بل وساد الاعجاب كثيراً من فئاته.

لا ريب في ان هذه الانجازات العظيمة التي حققها هتلر لبلده في امد قصير، كان لها ما يقابلها من سيئات، بل ومن جرائم، كان بعض الناس، لا سيما في الغرب الليبرالي وفي الشرق الاشتراكي، يخشون مغبتها ونتائجها ويحذرون من روح الإستخفاف التي كانت سائدة لا سيما في الغرب.

كان التمييز العنصري وتأليه العرق الآري وعلى رأسه السلالة الجرمانية لب العقيدة النازية. ومن هنا نشأ اضطهاد اليهود ومحاولات اخراجهم من البلاد.

كان الحكم الحديدي، والقبضة الفولاذية والكفر بالديمقراطية وبالحريات العامة، التي ناضل الغرب طويلاً من اجل تحقيقها، وما استتبع ذلك من جرائم الغستابو وسيطرته على كل نواحي الحياة العامة، قلباً لخط سير التاريخ في الغرب بخاصة، وفي العلم بعامة، نحو ترسيخ اركان الحرية والديمقراطية.

كانت حربه على النقابات العمالية ومقاومته الشديدة للمبادئ الاشتراكية نكسة لتقدم كبير كان قد تحقق في التاريخ الحضاري للبشرية، على شكل ما في دول الغرب الليبرالية، وعلى شكل آخر في الاتحاد السوفييتي، الدولة الشيوعية الوحيدة في العام حينذاك.

ثم جاءت الطامة الكبرى التي قضت على سلام العالم، واشعلت فيه الحرب لخمس سنوات ونصف وقضت عليه وعلى منجزاته واحلامه، حين انتقل بحلمه إلى توحيد اوروبا، ومن ثم العالم، تحت سيطرته وسيطرة جرمانيا الكبرى.

بذلك كله استجلب حنق المنادين بالمساواة الانسانية، وحنق المنادين بالديمقراطية، وحنق المؤمنين بالاشتراكية، واستجلب، فوق ذلك كله، حنق الذين كانوا يسيطرون على العالم ويخشون ان يفقدوا أعنة هذه السيطرة من بين ايديهم، لا سيما بريطانيا وفرنسا. واهم من ذلك كله انه استجلب حنق يهود العالم وسخطهم.

لم يكن غريباً، ولا سيما بعد قيام الحرب وبعد الهزيمة، ان يتجه الاعلام العالمي وان تتجه الثقافة كلها لبيان الجرائم النازية الضخمة وفضحها، بل وللمبالغة غير المعقولة في رسم الطبائع الوحشية للشعب الالماني كله، وكأنها صفة لازمت هذا الشعب، حتى بات تجسيداً كاملاً لاسوأ ما في طبائع البشر من شرور ورذائل، ولا سيما وان الغرب والشرق كليهما حاربا النازية، ولا سيما، ايضاً، ان جرائم النازي، التي عددتها باختصار، قد بلغت في الحرب ذروة ما كانت قد بلغت جزءاً بسيطاً منها قبل ذلك.

اليوم، بعد ان اظهرت النازية كل بشاعتها اثناء الحرب وبعد ان نجح كل من الاعلام العالمي والثقافة العالمية في جعلها رمزاً للشر الكلي المطلق، قد يستغرب ابناء الجيل الحالي من امتنا العربية كيف اعجب كثير من العرب، ولا سيما قبل الحرب، بل واثنائها، بهتلر. ولكن الذي عاش تلك الفترة، كما عشتها وكما عاشها ابناء جيلي لا يجدون في ذلك عجباً كبيراً.

فمن ناحية، فان انجازاته الضخمة في المانيا كانت بادية للعيان، والصحف كلها على اختلاف اتجاهاتها، كانت تنشر عن هذه الانجازات الكثير الكثير، وكان العرب يحلمون في ان يبرز من صفوفهم قائد يتمكن من انجاز ما يشبه انجازات هتلر في بلاده، سواء من حيث الوحدة القومية، او من حيث الانجازات الاقتصادية والاجتماعية.

من ناحية ثانية، فان هتلر كان عدواً لاعدائنا الاساسيين المستعمرين لوطننا، البريطانيين والفرنسيين والصهيونية، الذين كانوا يذيقون شعبنا من الوان المر ما لا نطيق، وعدو العدو صديق. وهل من المعقول ان تنحاز عواطفنا لمن يستعبدنا ضد من يعادي مستعبدينا؟

طبعاً، نحن نعرف اليوم، بالتجربة وبالوعي المتراكم، ان عدو العدو ليس صديقاً بالضرورة، وان عداء الخصمين لبعضهما قد يكون احد اسبابه الصراع على استعبادنا واستغلالنا نحن بالذات. ونعرف كذلك ان اضطهاد النازية لليهود كان اكبر اسباب نجاح

للهجمة الصهيونية، كما يتبين من مقارنة عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين قبل النازية مع عددهم بعدها. لكن، في ذلك الوقت، كان الوعي ما يزال فجاً، وكان لا بد للوعي العربي ان يتأثر بعض التأثر على الاقل بإيجابيات التجربة النازية من ناحية، وبعدائها لاعدائنا من ناحية اخرى.

من ناحية ثالثة، لا يجوز لنا ان ننسى ان شعوب المستعمرات كانت تعاني من كل المثالب التي اخذها الغرب والشرق على هتلر، ولكن على يد الدول الغربية نفسها. فالتمييز العنصري والحكم المطلق الاجنبي، ومحاربة النضال الوطني والنقابي والديمقراطي والاستقلالي، والاستغلال الشديد الى حد وضع البلاد في حالة من الفقر والجهل والمرض والتأخر، وادامته النظم الاقطاعية الاستغلالية الاستبدادية في البلاد كانت كلها من خصائص الاستعمار الغربي، مهما تكن دعاوى الغرب، في بلاده عن المساواة والحرية والديمقراطية وحق الشعوب في تقرير المصير.

ان كل الذي فعله هتلر، في هذه الميادين، لم يكن الا كشفاً لحالة النفاق الذاتي التي يعيشها الغرب، والانفصام بين دعاواه وافعاله. فقد قال صراحة، كما بينت في كتابي "تطور معنى القومية"، ما لم يكن يقوله الغرب ولكن يفعله ويمارسه، في المستعمرات في الدرجة الاولى، ولكن حتى في بلاده نفسها. وهل كان الزنوج وغيرهم من الاقليات العرقية والدينية في الولايات المتحدة احسن حالاً من اليهود في المانيا، لذلك كله لم يكن غريباً ان تؤثر التجربة النازية والصراع الدولي في الرأي العام العربي، وان تحاول الكثير من الحركات العربية تقليد النازية والتأثر بها ولو في ناحية، أو أكثر، من نواحيها، حتى لو كانت هذه الحركات في الاصل، ليبرالية بورجوازية. فالكتلة الوطنية في سورية، عقب اعلان الاستقلال السوري، رغم انها حركة شعبية ليبرالية بورجوازية سرعان ما نظمت "القمصان الحديدية"!! لتنظيم الشباب تنظيماً شبه نازي، وجعلت منير العجلاني وسيف الدين المأمون، وثالثاً لم اعد اذكر، قادة لهذا التنظيم "الحديدي" الذي لم يعش عاماً واحداً.

في مصر قامت "مصر الفتاة" ممثلة لهذا الاتجاه. ولكن هذه الحركة لم تعش الا على هامش الحركة الوطنية المصرية، وغيرت الوانها ومبادئها عدة مرات كالحرباء.

في لبنان، قامت الكتائب مقتفية اثر الحزب النازي في كثير من ايديولوجيته وتنظيمه، لولا أنه بدلاً من الدعوة الى الوحدة القومية، ظل ممثلاً للنزعة الطائفية الضيقة، وفي مقابل الكتائب المارونية قام تنظيم اسلامي هزيل دعا نفسه "بالنجادة" لم يكن له يوماً اثر في الحياة السياسية اللبنانية.

وقام الحزب السوري القومي متمثلاً النازية في عقيدته وتنظيمه كذلك. ولكنه دعا الى قومية سورية ضيقة بديلاً عن القومية العربية. ومد مساحة هذه القومية، حسب مزاجه، لتضم العراق والكويت من جهة، وتضم قبرص من جهة اخرى.

جميع هذه الحركات كانت تمثل "الانبهار" بظاهرة النازية وكانت تمثل نوعاً من "الهروب" من الذات لاقتفاء اثر الغير، في حل الصراعات الاساسية والتناقضات الرئيسية التي كان يعيشها الوطن العربي آنذاك.

وربما لانها كذلك، اي لانها فتشت عن الحلول من خارج ذاتها، ورغم انها حاولت ان تكون راديكالية وبعيدة عن "حرتقات" السياسة اليومية، عجزت دائماً عن أن تكون عاملاً مهماً في السياسة العربية، عجزت في الماضي وظلت عاجزة حتى اليوم رغم ان بعضها كان له دور بدا مهما في وقت من الاوقات.

في الجامعة الاميركية، كما في الرأي العام العربي بعامة كان، هذا الصراع العالمي يجد اصداءه وبصرف النظر عن الحركات التي حاولت اقتفاء اثر هتلر، فقد كان كل إنتصار له يدفع العرب الى الشماتة بدول الغرب والى التعاطف معه، والى التقهم لاسلوبه، وبالاخص قبل قيام الحرب، وانكشاف دور هتلر. والدعاية الضخمة التي بذل فيها الحلفاء كل جهدهم، وما يزالون حتى الآن، لاصقة بالصفة الاجرامية البحتة.

كان عام ١٩٣٧ عام قلق واضطراب ونكسات في معظم انحاء الوطن العربي. فمعاهدة الاستقلال السورية واللبنانية لم تبرمهما فرنسا. ورجعت تقيل حكومات وتقيم حكومات في كل منهما كما تريد.

في مصر غير الملك فاروق حكومة الوفد الائتلافية التي عقدت معاهدة الاستقلال، والتي كانت تمثل الشعب في انتخابات حرة حقيقية، وجاء بعلي ماهر باشا رئيساً لوزارة تمثل القصر. ورغم ذلك فان هذا التغيير لم يترك لدينا، نحن طلاب الجامعة الاميركية ولدى الرأي العام العربي في المشرق آثاراً سيئة. فالرجل سرعان ما اظهر اهتماماً بالقضايا العربية التحررية، لا سيما قضية فلسطين، وبالاتجاه القومي عامة، لم نعهده في حكم مصر من قبل. وعمل على تحصين الجيش المصري وزيادة عدده وعدته، وعين له قائداً "عزيز علي المصري باشا" المعروف بنزعته القومية العربية ومعاداته للاستعمار البريطاني. في فلسطين، كانت الهدنة التي اعلنها الملوك العرب قد انتهت الى لا شيء. وعادت الثورة الى السلاح من جديد. ولكن بعزم أقل بكثير من العزم الذي انطلقت به عام ١٩٣٦ وبتنظيم اقل، وبقيادات متنافسة متنازعة متفرقة، حتى ذبلت تماما لواخر عام ١٩٣٨.

كان العراق وحده يمثل لنا، في ذلك الوقت، الامل الكبير، بحيث كنا نتصوره "بروسيا العرب". كان اكثر الاقطار العربية اهتماماً بما يجري في الوطن العربي، و"اقوى" الاقطار العربية، ان اصح هذا التعبير، في تلك الفترة. كان اول قطر عربي نال "استقلاله" ودخل في عصبة الامم عام ١٩٣٢. كان الوريث الفعلي، بملكه وحكامه، للثورة العربية الكبرى. كان الملك فيصل الاول ابن الشريف حسين وفاتح بلاد الشام وملكها قبل ان يخلعه الفرنسيون ويصبح ملكاً للعراق. وكان معظم وزرائه الاوائل من الذين شاركوا في الثورة، وشاركوا في الحكم في سورية، ثم انتقلوا الى العراق. وكان الملك غازي شاباً، ولكن لا ينقصه الحماس للقضية العربية، لا سيما قضيتي فلسطين وسورية.

هذا من ناحية الحكام. ولكن كان ثمة ايضاً حماس الشعب القومي. فشعب العراق شعب تخوم الوطن، تخوم الوطن، دائماً، اكثر احساساً بانتمائهم القومي من المراكز البعيدة عن الاعداء. ولقد تعرض العراق للهجوم من ايران في تاريخه الطويل مرات عديدة، مما ادى الى تنمية شعوره القومي تنمية عضوية فطرية.

الى جانب ذلك، فان تركيب العراق الاجتماعي تركيب عشائري وقبلي اكثر منه تركيباً مدنياً مما يجعل للنسب اهمية تفوق ما له في المجتمعات المدنية.

ومن هنا. فقد كان العراق دائماً في مقدمة الحركة العربية شعباً وحكومة. فقد كان في بغداد نادي المثنى الذي كان معروفاً باتجاهه القومي في المشرق العربي كله. وكان فيها حزب الاستقلال. وكان منها اكبر عدد من المتطوعين العرب في ثورة فلسطين عام ١٩٣٦. حتى وكانت في العراق شخصيات، كطه الهاشمي، وياسين الهاشمي، ومولود مخلص، معروفة في المشرق العربي كله لا كشخصيات عراقية وطنية فحسب، بل كشخصيات عربية مهمة. حتى نوري السعيد، بكل تاريخه الاسود، لم يكن قد ظهر في المشرق العربي على حقيقته التي عرف بها في العراق، بل لم يكن قد ظهر بشخصيته الحقيقية في العراق نفسه التي ظهر بها بعد ثورة ايار ١٩٤١.

لئن كان الوضع العربي كله في حالة غليان واضطراب ونكسات، ولا يكاد يبدو بصيص من نور في غير العراق، ومصر الى حد ما، والثورة الفلسطينية برغم كل ما فيها من نكسات وتراجعات وخيبات.

وفي ظل هذين الوضعين، العالمي والعربي، عشنا في الجامعة، نحاول ان نفهم ما حولنا، ونحاول ما امكننا ان نهيىء انفسنا لمستقبل صعب لا ندري الكثير عن خطوطه المقبلة.

وكان التيار السائد هو التيار القومي. وبما ان هذا التيار هو التيار الذي ربينا فيه ونشأنا عليه ولم نعرف غيره، فقد كان يبدو لنا انه التيار الوحيد الطبيعي التاريخي الذي تمكننا السباحة فيه. اليس وطننا العربي؟ اليست امتنا هي الامة العربية؟ اليس وطننا محتلاً بالاستعمار، مهدداً بالهجمة الصهيونية؟ اذن فليس لنا من سبيل نسلكه غير سبيل التيار القومي العربي، لان فيه الجواب السهل البسيط العفوي الفطري على هذه الاسئلة جميعاً.

واذا كنا، في الاردن وفي فلسطين، لم نجد من يجادلنا في هذا، فالامر كان مختلفاً في بيروت. ففي الجامعة الاميركية كان هناك التيار القومي العربي، وكان هناك التيار القومي السوري الذي كان في عز شبابه وقوته، ولم يكن ثمة، بعد، تيار آخر ملموس.وقد يتساءل بعضهم اين كان الشيوعيون، واين كان الاخوان المسلمون؟ والحقيقة ان ايا من هذين التيارين لم يكن له في الجامعة ، في ذلك الوقت، بل ولا في الحياة العامة وجود، رغم ان الحزب الشيوعي كان قد تكون في لبنان وسوريا قبل ذلك بسنوات.

كان الصراع السياسي محصورا في الجامعة بين التيار القومي العربي، وهو الاقوى، والتيار السوري القومي. وكان طبيعيا ان نجد ملاذنا،انا زكل اصدقائي الذين عرفتهم، في " العروة الوثقى" تلك الجمعية الثقافية العربية التي كان همها ترسيخ مبادئ التيار العربي،والتي رأسها، في عامي الاول في الجامعة، الدكتور امجد فتحي، الارد‌ني، ورأسها، في عامي الثاني،سعدي خليل العراقي. وفي هذه الجمعية كتبت،مرة ، في مجلتها . والقيت، مرة، محاضرة فيها. واشتركت في معظم نشاطتها، الا رحلة الى العراق التي اقرانها رغم ان هذه الرحلة كانت حلما من احلامي، اذ لم يكن لدي من المال ما يسعني للاشتراك فيها.

ولم ننج مع ذلك،من محاولات الحزب القومي السوري كسبنا الى صفوفه.كان معنا في صفنا، في السنة الطبية الاولى الدكتور عبد الله سعادة الذي اصبح فيما بعد رئيسا للحزب. ولكنه في الحق، لم يفتحالحديث يوما في الانضمام الى الحزب. انا عبد الله الريماوي، الى جلسة في حديقة الجامعة،واخذ يحدثنا عن حزبه،ومبادئه ويقنعنا بالانضمام اليه.ولقد اتبعنا واتعبناه، وطال الحديث ساعات.اقتنع بعدها انه لا يمكنه انتشالنا من جذورنا التي تربينا عليها منذ نشأتنا. وبقينا عربا كما كنا سوريين! بل لعلنا ازددنا ايمانا بالخط القومي العربي.

كان ايماننا، حتى ذلك الوقت، عفويا وفطريا، ولكن في الجو الصراع العقلي والذهني الذي كان طاغيا في الجامعة، كان لا بد لهذا الايمان من ان يتخذ له قاعدة عقلانية. قبل الجامعة لم يكن التيار القومي في حاجة الى تبرير وتفسير واسباب. ثمة امة عربية انطلقت من الجزيرة العربية مع لغتها ودينها ورسالتها وبنت، مع مرور القرون، امة عربية وحضارة عربية.

وهذه الامة تعرضت للانحطاط والتشتت والعنف، واستعبدتها أمم أخرى، وكان لا بد لهـا ان تناضل من اجل التحرر واسترجاع القوة والرسالة وبناء الحضارة. هل هناك ما هو ابسط من هذه المعاني؟

ولكننا اكتشفنا في الجامعة ان ظروف التجزئة التي فرضتها حالة الانحطاط اولا، ثم حالة الاستعمار ثانيا قد انبعث، فيما حركات اقليمية ايضا. وكان الصراع الاساسي في الجامعة مع هذه الحركات، وعلى رأسها، في ذلك الوقت، الحزب السوري القومي، فالكتائب في ذلك الحين، وان كانت ذا صوت مسموع في السياسة اللبنانية، لم يكن لها وجود ملموس في الجامعة اليسوعية، حيث التعليم بالفرنسية، وكان معظم الطلاب الجامعة الامريكية فلسطينيين وعراقيين واردنيين ومصريين.

ومثلما كان علينا ان نصارع الحزب القومي السوري كان علينـا ان نـصارع اتحـادات الطلاب الاقليمية. لاسيما اتحاد الطلبة العراقيين واتحاد الطلبة المصريين، ليحلوا أنفسهم ويكتلوا باتحاد العرب المتمثل بالعروة الوثقى. وحاول بعض الطلبة الاردنيين، اثناء وجودي في الجامعة انشاء اتحاد لهم كذلك، فعملنا جهدنا لافشال المحاولة، ونجحنا. لقد اعتبرنا كل محاولة من هـذا النوع ضربا من تجزئة التيار القومي. وكل هذا كان قبل ان نسمع بشيء اسمه البعث العربي.

لم يكن صراعنا هذا صعبا، فقد كان التيار القومي العربي هو التيار المسيطر سيطرة تامة. وكان قسطنين زريق هو الاستاذ النموذج في القيادة الفكرية لهذا الاتجاه. ولكن كانت ثمة اسـماء كذلك في هذا الاتجاه.قد استغرب ابن هذا الجيل وجودها آنذاك فيه، فهل يمكن تصور ان شـارل مالك، الذي كان قد رجع حديثا من الولايات المتحدة، والذي اصبح فيما بعد فيلسوف الانعـزال اللبناني المسيحي، وصديق الوجود الصهيوني، وعدو العروبة والاسلام، وكان في ذلك الوقـت معاشيا للخط العربي القومي وممالئا له، وان لم يتبنه تبنيا كليا بسبب من جذوره الفكرية الاكوينية -نسبة الى توماس اكويناس-؟

بل هل يمكن تصور ان سعيد عقل، هذا الشاعر الذي انقلب في اواخر حياته ليحارب كـل ما هو عربي، حتى اللغة نفسها والحرف نفسه، اللذين بنيا له مجدا. كان عربي الاتجاه، بل انـه هو نفسه الذي ألف لأول مرة، نشيدا للعروة الوثقى، لحنه محمد فليفل، واصـبح هـذا النـشيد، رسميانشيد العروة؟

اسمع ما يقول في هذا النشيد:

للنسور..

ولنا الملعب..

والجناحان الخضيبان بنور..

للعلا والعرب

ولنا القول الأبي

واللسان العربي

والسلاح

ولنا هز الرماح..

في الغضوب المشمس.

ولنا زرع الدنا   قبباً زرق السنا

ولنا صهوة الخيل من الهند.. الى الأندلس.

هل يقول مثل هذا النشيد إلا انسان مؤمن بالعروبة ايمان القلب والعقل والوجدان؟ صحيح انه قد قيل في ذلك الوقت انه انما الف هذه القصيدة، لا اعجاباً بالعروبة، بل إعجاباً بليلى، تلك الفتاة الجامعية اللبنانية التي سحرت نصف طلبة الجامعة على الاقل. والتي كانت مؤمنة بالعروبة، حينذاك، ومن وجوه التيار العربي الجميلة الرشيقة. ورغم ذلك فلو كان يكره العروبة آنذاك كما كرهها فيما بعد، لما تمكن من تأليف مثل هذه القصيدة[1].

هذا التيار القومي الطاغي سرعان ما وجد نفسه في حاجة الى التنظيم. ولا أعرف متى بدأ هذا التنظيم فعلاً، ولا من بدأه، وان كان شبه معروف لدينا انه قسطنطين زريق وراءه، وقد يكون زعيمه، وأرجح الظن انه بدأ في تلك السنوات نفسها التي وجدت فيها في الجامعة، سنوات ٣٧-٣٩، وانتسبت لهذا التنظيم القومي العربي، وكان لانتسابي له قصة.

لم أعد اذكر من هو الذي فاتحني باقتراح الانضمام الى هذا التنظيم السري. لعله صلاح العنبتاوي او لعله خالد مطيع. ولم اتردد في قبول هذا الانضمام. فقد وجدت ما أؤمن به متمثلاً فيه. وطلب مني ان اذهب بعد ظهر سبت الى بيت نديم دمشقية، الذي اصبح فيما بعد سفيراً للبنان في لندن لسنوات طويلة، مع عبد الكريم الحمود، زميلي في الجامعة، وصديقي

[1] وبالمناسبة، فقد، طالما سمعت وقرأت تقاليد عن منشأ الشعر الحر: تفعيلياً كان أو غير تفعيلي، يرجع منشأه إلى الخمسينات من هذا القرن، فما رأيكم بهذه القصيدة التي ألفت عام ١٩٣٨؟
بل لقد ألقى في الوست هول مرة محاضرة عن الشعر الجاهلي كانت من اروع وأجمل ما سمعت في حياتي، لا سيما وأنه صاحب إلقاء رائع ساحر.

في الاردن. وكنت قد اتفقت مع عبد الكريم على الذهاب الى سينما روكسي في ذلك اليوم.

انطلقنا، أنا وعبد الكريم الى بيت نديم، القريب من الجامعة، وفي نفسينا رهبة وشعور بأننا مقدمان على امر خطير. فلأول مرة في حياتنا ننضم الى حركة نضالية سرية، ونتحمل مسؤوليات الالتزام. دخلنا الدار وجلسنا في صالون البيت دقائق. ثم استدعى نديم، عبد الكريم، الى غرفته. فغاب عني دقائق قليلة وخرج. وجاء دوري في الدخول. طلبت منه ان ينتظرني دقائق لنذهب بعد ذلك معاً الى السينما. ولكن نديم قال انني قد أتأخر، فاتفقنا على ان يسبقني عبد الكريم، يشتري لنا تذكرتين، يترك احداهما في شباك التذاكر لألحق به فيما بعد.

دخلت الى غرفة نديم. وافتتح الحديث. قال: "ان في تنظيمنا مستويين من العضوية، مستوى العضو المنتسب، ومستوى العضو العامل، وقبل قليل اقسم عبد الكريم قسم الانتساب ليكون عضواً منتسباً. نريدك لما هو اهم. وسنحملك مسؤوليات اكبر. ولذلك سنجعلك عضواً عاملاً، وستقسم قسم العضو العامل".

وسكت قليلاً. واضاف: "هل انت مستعد لتحمل جميع ما تكلف به من مهمات وان تكن صعبة؟"

كان قلبي يخفق من الرهبة، ولعل جسمي كله كان يرتجف، كما يحصل معي دائماً عند كل موقف رهيب. ولكنني كنت اعلم انني حين قررت الانضمام الى هذا التنظيم كنت قد قررت تحمل مسؤولياتي النضالية.

فقلت: "نعم، انا مستعد".

فاقسمت يمين الولاء والاخلاص والطاعة، واصبحت عضواً عاملاً لحظتئذ.

فقال، وقد انتهت مهمته المبدئية: "هل يعلم احد بانضمامك الى التنظيم؟".

قلت: "لا يعلم بذلك غير عبد الكريم وغير الذي دعاني للانتساب".

قال: "الآن نريد منك ان تبقي انضمامك سرياً. وان لا تشارك في اي نشاط يقوم به التنظيم. بل وان تخفف علاقاتك مع من تعرف من اعضاء التنظيم من اصدقائك".

قلت، دون ان افهم ما هو مطلوب مني: "افعل".

قال: "ونريدك ان تنضم الى الحزب القومي السوري، وتنشط بين صفوفهم، وتنقل الينا اخبارهم".

وصعقت. ولم أجد جواباً. ان انضم الى حركة تمثل خط عمري، وتعبر عن ميولي وتربيتي ونشأتي امر، وان اعمل في حركة لا أومن بها، ولا بمبادئها، واخدع نفسي وأخدع الآخرين هذا امر مختلف تماماً. ولا ادري ان كان وجهي قد اصفر او احمر في تلك اللحظة. ولكنني شعرت كأن قلبي سيغادر موقعه في قفصي الصدري، وشيء كالسديم دار في رأسي، ففقدت القدرة على التفكير والتركيز.

كنت اميل الى الرفض الصريح البسيط الواضح المطلق. اكون جاسوساً؟ لم يكن ذلك ليعبر عن طبعي واخلاقي وتربيتي. لكنني اقسمت، قبل ثوان او دقائق فحسب، على الطاعة المطلقة. ما العمل؟

وبحركة غير ارادية من لساني وتحت تأثير القسم الذي لم تختف اصداؤه من الغرفة بعد، قلت: "افعل....".

قال: "حسن. لذن نبحث في التفاصيل فيما بعد".

وخرجت من لدنه لا اكاد ارى صديقي، وركبت الترام. وانطلقت الى الروكسي. وجلست بجانب عبد الكريم. وتركزت عيناي على الفلم. ولم ار شيئاً.

الحزب القومي السوري؟ انا اكون عضواً في الحزب القومي السوري؟ مع ذلك، لن ينقلب العالم على رأسه، لو فعلت، ولكن اعمل جاسوساً؟ ذلك ما لم اكن اطيق عليه صبراً ان أعمل ضد طبيعتي، ونفسيتي، واخلاقي، ومبادئي. وكيف ابرر ذلك لنفسي؟ بعض الناس مخلوقون لمثل هذه المهمات. طباعهم، نفسياتهم، تساعدهم على ان يقوموا بها. بل قد تكون "الجاسوسية" نفسها، أحياناً، عملاً وطنياً عظيماً. ولكن انا، الذي لم اتعود ان اكذب في حياتي، انا اعمل جاسوساً؟!

لم انطق خلال الفلم بكلمة. وخرجت مع عبد الكريم ورجعنا الى الجامعة، لم اكد انطق بكلمة انا الذي كنت دائماً كثير الكلام! قال: "اقسمت اليمين؟". قلت: "نعم". قال: "ماذا بعد؟". قلت: "لا شيء. اصبحت عضواً منتسباً مثلك". كانت الساعات التالية من اصعب ساعات حياتي علي- حاولت ان ادرس فلم استطع. تمشيت في حديقة الجامعة، فما ازددت الا ضيقاً واكتئاباً. ذهبت الى بجعازي لاتعشى، وتركته قبل ان اضع لقمة واحدة في فمي. رأسي يدور ويدور، وفكري يلف ويلف. لا اجد مستقراً. استعددت للنوم. ولكن من اين يأيتين النوم، وفي نفسي كل هذا الاضطراب وكل هذا الضيق؟

وشعرت انني سانفجر. كان لابد لي من ان انفس عما في صدري لانسان ما. كان ذلك

هو الوسيلة الوحيدة لانقاذي مما انا فيه.. ووجدتها.. ليس غير رياض الخطيب. رياض زميل صف في مدرسة عمان. صديقي وزميلي في القدس، حيث كنت في الكلية العربية وكان في مدرسة صهيون. وكثيراً ما تقابلنا ايام الآحاد. وقلما افترقنا في الجامعة وان كان هو يدرس الاقتصاد. وأدرس انا الطب. وكان فوق ذلك كله قد انضم هو نفسه الى هذا التنظيم السري. وكان يسكن معي في نفس الكوليج هول ولكن في غرفة خاصة. كانت العلاقة بيني وبينه اقوى من العلاقة بيني وبين اي طالب آخر.

ذهبت الى غرفته، وكان يستعد للنوم. قلت: "دع النوم الان. وتعال معي". لاحظ انني في حالة غير طبيعية. قال: "ماالامر؟". قلت: "دع الاسئلة الان، وتعال معي". لم يكن بوسعي ان افضي له بما في نفسي بين هذه الجدران الاربعة الضيقة. ونزلنا الى حديقة الجامعة، شرقي الكوليج هول، تحت تلك الشجرة الضخمة التي كنت احبها دائماً، والتي تنزل اغصانها جذوراً الى التربة من حولها فتضفي عليها جمالاً ما بعده جمال.

وافضيت له بما في نفسي وبكل ما كان يثقلني. وشعرت رغماً براحة عجيبة. كان يعرفني حق المعرفة ويفهمني حق الفهم. ويحبني كل الحب. وكان الى ذلك كله طيباً، بسيطاً، مفتوح القلب وضحك حين رويت له ما حصل معي، ضحك من كل قلبه، قال: "انت، انت تدخل الحزب القومي السوري وكل اصدقائك يعرفونك ويعرفون اتجاهك؟ انت تصبح جاسوساً وكل من يعرفوك يعرف احلامك وتكوينك؟ كان يجب عليك ان ترفض منذ اللحظة التي كلفك بها نديم بهذه المهمة". قلت: "والقسم؟ ورهبة اللحظة؟". قال: "القسم للطاعة في النضال القومي لا في خيانة نفسك". وشجعني على ان اذهب الى نديم في اليوم التالي واعتذر عن المهمة، ولم اجرؤ. وطلبت منه ان ينوب عني، وان يذهب هو الى نديم، وهو زميله في نفس الصف من الاقتصاد وصديقه ومنافسه في لعبة البنغ بونغ، فوعد بذلك. ورجعنا الى الكوليج هول، بعد ان ازاح عن كتفي هماً كان اقسى الهموم التي مرت علي في حياتي، وشعرت براحة عجيبة.

وانقضى الامر في اليوم التالي. واخبرني رياض بان الامر قد انتهى. وانني الان عضو منتسب الى الجماعة، وتنفست الصعداء.

كان التنظيم يتكون من خلايا. ودخلت خلية يرأسها خالد مطيع. وكان فيها، ممن اذكرهم، صلاح العنبتاوي وحسن فرعون وغيرهم، وكلهم من طلبة الطب في الصفين الاولين. واطلعت على الدستور والنظام في الجلسة الاولى. ولست اذكر منهما شيئاً الان، ولكنه دستور قومي عربي، ونظام هرمي سري، وكنا نجتمع كل اسبوع. ثم طلبت الينا القيادة ان نوقع

جميعاً طلبات انتساب الى "عصبة العمل القومي".

عصبة العمل القومي هذه كانت تنظيماً عربياً قومياً غير سري ولد في سورية عقب الاستقلال الذي لم يتم مباشرة، وبدأت تنتشر مبادئها وتنظيماتها في بعض الاقطار العربية خارج سورية. وكان زعيم التنظيم في لبنان علي ناصر الدين- وقيل لنا في تبرير هذا الطلب ان عصبة العمل وهي تنظيم علني، ستكون غطاء لعملنا السري.

وهكذا انضممنا الى عصبة العمل القومي، ودعينا الى اجتماع عام لطلبة الجامعة الاميركية وطالبات "الجونيور كوليج" المنظمات الى العصبة، في دار، في رأس بيروت. وكان بعض المجتمعين اعضاء في التنظيم السري، وبعضهم مرشحين ليكونوا اعضاء وكان عدد المجتمعين حوالي الخمسين. القى فينا علي ناصر الدين خطاباً نسيت، ربما منذ تلك اللحظة، كل ما جاء فيه اذ لم ناخذ عصبة العمل، في الحقيقة، على محمل الجد كما اخذنا تنظيمنا السري، لا سيما بعد ان عرفنا انه مجرد غطاء. والقى غيره ايضاً كلمات مناسبة ولكن، بالنسبة لي، لم يكن ذلك اهم ما في الاجتماع. كان اهم ما في الاجتماع ان اجمل فتاتين في الجامعة ليلى طنوس وليلى بستاني كانتا فيه، واهم من ذلك انني اكتشفت ان لمعة بنت صالح بسيسو، الفتاة الاردنية التي كنت قد اعجبت بها في الاردن، من بعيد البعيد، طالبة من الجونيور كوليج، وانها، ايضاً، من حضور هذا الاجتماع، ولم اكن قد عرفت قبل ذلك انها في بيروت. ولاقى ذلك بهجة في نفسي رغم ان لم يقدم او يؤخر في علاقاتنا، فقد كان التحفظ الاردني يكبلني مثلما يكبلها.

بعد ذلك بأسابيع حضرنا اجتماعاً آخر قيل لنا انه ثقافي في بيت من بيروت، القت فيه سيدة، اظن انها زاهية ايوب، محاضرة عن تاريخ العرب واذا بها تتحدث عن سيدنا ابراهيم واسماعيل مما لا علاقة له بتاريخ العرب كما كنا نفهمه انذاك. فانهينا الاجتماع.

وقد صممت ان لا احضر اجتماعاً للعصبة بعد ذلك، وان اكتفي باجتماعات التنظيم السري، لولا اننا دعينا بعد فترة لاجتماع للعصبة قيل لنا في التنظيم انه مهم جداً، وان علينا ان نحضره. وانقذني منه ومن نتائجه، مرة اخرى رياض الخطيب. فقد اتفقنا على الذهاب الى الاجتماع معاً. ولكن رياض الذي كان مغرماً بكرة القدم، غير فكره في اللحظة الاخيرة، واصر على ان نحضر مباراة كرة قدم مهمة كانت تجري يومها في ملعب الجامعة. حاولت ان اقنعه بان يذهب وحده. قلت له: انني لا احب كرة القدم، ولا احب ان اخالف اوامر التنظيم. ولكنه، بقوته الفاحشة وجسمه الذي كان اضخم من جسمي بكثير، جرني الى المباراة جراً وضيع علي حضور الاجتماع.

حل مساء ذلك اليوم ولما يرجع المجتمعون. واذا بالخبر يصلنا ان الشرطة قد هاجمت مكان الاجتماع، وقبضت على كل من كان فيه، واخذتهم الى التوقيف.

وهاج طلبة الجامعة وماجوا. وهرعوا جميعاً الى حديقة الجامعة، واعلنا اضراباً عن الطعام، وعن النوم في غرفنا، وعن الدروس، حتى يرجع الطلبة الموقوفون، ورحمنا الله، اذ عاد الموقوفون الى الجامعة قبل منتصف الليل، وانتهى المشكل. قال لي رياض وهو يتضاحك: "هل تنسى لي هذا المعروف معك؟". قلت: "ابداً. وكيف انساه وقد انقذني من التوقف؟".

ولم اكن اعرف انه اول سجن في حياتي تجنبته لأقع، من بعد، في سجون وسجون لا اعرف كيف اتجنبها!

في اجتماعات التنظيم السرية كنا نثقف انفسنا فكرياً وسياسياً ونركز، في تحاليلنا السياسية، على قضيتين عربيتين شغلتانا في ذلك الوقت، احداهما كانتا تسليم فرنسا للواء الاسكندرونة الى تركيا، واظن ان محاضرتي في العروة الوثقى ومقالتي في مجلتها كانت في هذا الموضوع. وثانيهما كانت الثورة الفلسطينية. وكانت الاوزاعي، في ذلك الوقت، منطقة خالية من السكان ومن البناء. واذا كان ذلك كذلك، فان علينا ان نتدرب على استعمال السلاح. وقرر التنظيم تدريبنا.

خرجنا من اجل التدريب الى منطقة الاوزاعي ثلاث مرات في عصر ايام سبت متباعدة. وكان مدربنا ضابط شرطة متقاعد. وتدربنا، ان كان هذا يسمى تدريباً، على الضرب بالمسدس. فبعد شرح بسيط عن عمل المسدس اطلق كل منا بضع رصاصات على هدف غير بعيد، فاصاب بعضنا الهدف صدفة، واخطأناه مرات. وكانت السنة الدراسية قد قاربت نهايتها. وانتهى التدريب، واختتم بخير!

ولست ادري اذا كان بقية اعضاء التنظيم في السنوات التالية، قد استكملوا تدريبهم، فانا تركت الجامعة بعد ذلك. وكانت هذه نهاية اتصالي بهذا التنظيم. ففي الجامعة ابتدأ، وبتركها انتهى. ولكن صداقاتنا التي تكونت عاشت بعد ذلك سنوات وسنوات، وتلك هي قصة نضالي ونموي السياسي" في الجامعة.

وكثيراً ما يقال ان "حركة القوميين العرب" التي قادها الدكتور جورج حبش بعد ذلك بسنوات قليلة هي تطور من هذا التنظيم الذي كنت فيه، ولا ادري ان كان ذلك صحيحاً.

ولكنني ارجح ان هذا التنظيم قد ضعف اثناء الحرب. ولعله انمحى. ثم عاد بعد الحرب في ظروف مختلفة، انحسر فيها الاستعمار الفرنسي، وتصاعدت الهجمة الصهيونية، وقوي

نفوذ البريطانيين، ولبست الولايات المتحدة الثوب الامبريالي، وقويت الحكومة الشيوعية، والحزب القومي السوري، وظهر حزب البعث العربي من دمشق بقوة واندفاع، وحصلت سوريا ولبنان، بل والاردن، مع بعض التحفظات، على الاستقلال، وانشئت الجامعة العربية، واصبحت الوحدة العربية هماً واقعياً بعد ان كانت امنية وحلماً. فولدت حركة القوميين العرب، وقد ورثت الكثير من التنظيم السابق، ولكنها كانت فاشية، لكثر عداء للشيوعية والاشتراكية والبعث، جاعلة الوحدة العربية مطلبها الاساسي، متخذة شعار "وحدة تحرر ثأر" شعاراً مميزاً لها. واعرف ان بعض الذين كانوا معنا في التنظيم السابق كصلاح العنبتاوي وبرهان النجاني ووصفي التل، قد انضموا بعد ذلك الى هذه الحركة سنوات طال بعضها وقصر بعضها.

عود بلا أوتار

اظن ان هذين العامين اللذين قضيتهما في الجامعة كانا من أكثر اعوام الجامعة حيوية او، على الاقل، من اكثر اعوامي انا، حيوية.

قلت "من اكثر اعوام الجامعة حيوية" رغم انني طبعاً لا اعرف بقية اعوام الجامعة من جهة، ورغم أن الكثرة الكاثرة من طلاب الجامعة في كل العهود ربما قالوا مثل هذا القول. لكنني اظن انني لم ابعد عن الحقيقة كثيراً حين قلت ذلك. ولعل احد الاسباب هو ان قدوم شارل مالك في ذلك العام، وما احدثه في جو الجامعة من صحوة فكرية لم تقتصر على طلبة الفلسفة فحسب بل تعدتهم الى طلبة الجامعة في كثرتهم مهما كانت اختصاصاتهم، وخلقه لاجواء التساؤل والمناقشة في كل ما يمت الى حياة الفكر والثقافة، قبل ان يأخذ على عاتقه كما فعل بعد سنوات، ان يلقى بالاجوبة القاطعة المخالفة للحقيقة، والخادمة لمصالح الصهيونية، والامبريالية، والتعصب الطائفي الضيق، كان لها اكبر الاثر في اضفاء جو ثقافي جديد ما أظن انه كان موجوداً من قبله، ولا اظنه استمر كثيراً من بعد، حتى مع وجوده.

ويلوح لي ان جو الجامعة من قبله كان جو اسد رستم وانيس المقدسي. وهما استاذان جامعيان كلاسيكيان. ولكن جو الجامعة في هذين العامين كان جو شارل مالك وقسطنطين زريق. وهما شخصيتان مليئتان بالحيوية، متدفقتان بالنشاط، قادرتان على التأثير في محيط اوسع بكثير من المحيط الضيق المخصص لكل منهما في نطاق دروسه وطلابه.

من ناحية ثانية، كان هناك هذا التنظيم القومي العربي السري الذي نشأ، فيما يبدو

لي، اثناء وجودي هناك، لا قبل ذلك.ان هذا التنظيم في ذاته، ربما لم يكن مهماً تاريخياً، وربما لم يعمر طويلاً. فالحرب التي قامت بعد تركي للجامعة د حدث من كثير من النشاطات التي كانت الجامعة تحفل بها، ولا تكاد المفوضة الفرنسية تقدر على ان تقيدها وتحصرها مثلما كانت تقيد لبنان كله وتحصره.

مع ذلك، فليس من همي أن اعطي احكاماً عن الجامعة نفسها هنا. كل ما اردت ان أؤكدها هو الجزء الثاني من مقولتي وهو أن هذين العامين كانا من أكثر أعوام حياتي حيوية.

ان الانتقال من جو الكلية العربية ، ذلك الجو الضيق المحصور الخانق الحافل بشيء واحد هو المنافسة ، الى جو الجامعة الاميركية، ذلك الجو الرحب المنفتح على العالم، عالم الفكر والسياسة والناس والصداقات والثقافة والموسيقى والرياضة، تجربة عميقة في ذاتها. كما أن الانتقال من جو عمان نصف البدوي ونصف الريفي ونصف المتحضر، ومن الكلية العربية، ولا اقول من القدس، لأننا لم نعش في القدس بل عشنا في الكلية العربية، الى جو الجامعة الاميركية- وايضاً أقول الى جو بيروت ، لأن الجامعة الاميركية وان تكن في بيروت فهي ليست بيروت – هذا الجو الواضع قدمه على اولى درجات التقدم الحضاري الثقافي العام، تجربة عميقة في ذاتها. لم يكن الانتقال انتقالاً في المكان فحسب، بل انتقلت من زمان الى زمان.

لقد درست فيما بعد في قصر العيني في القاهرة، واحببت القاهرة ومصر كما لم أحب بلداً عربياً مع استثناء الاردن الذي هو، طبعاً بلدي وبلد أولادي. ولكنني امنا احببت مصر، احببت القاهرة، واحببت المصريين، واحببت زملائي الطلبة المصريين، أي احببت البلاد ومكان البلد. ولم تنشأ بيني وبين الجامعة المصرية بالذات علاقة محبة. فالجامعة المصرية كانت معهد دراسة عليا فحسب، قدمت ل الكثير في اختصاصي ومهنتي. وقدمت لي، في هذا الميدان بالذات، اكثر مما كان ممكناً ان تقدم الجامعة الاميركية. ولكنها باستثناء ذلك، لم تقدم غير ما خلقناه نحن في كلية الطب من علاقات انسانية وصداقات ورفقة هي التي دخلت القلب وسكنته، وستظل تسكنه الى آخر العمر.

وهذا هو الفرق بين بيروت والقاهرة ، في بيروت، كان العامل المؤثر الاساسي هو الجامعة نفسها. في مصر، كان العامل المؤثر الاساسي هو مصر نفسها، كل ما في مصر، لا الجامعة وحدها.

في الجامعة الاميركية تفتحت عقولنا كما لم لا يمكن ان تتفتح بقراءاة الكتب والمجلات فحسب، كما كان امرنا في عمان. هذا الجو الثقافي ، الحياة الداخلية وما تتيحه من شراكة في كل أسباب الحياة مما لا يمكن ان يتاح في غرفة الدراسة فحسب. جو النقاش، في كل الوان

النقاش، وفي كل مواضيع الدنيا، ما نفهمه منها وما لا نفهمه. الاختلاط بين كل انواع الدراسات والاختصاصات والاختلاطات بين طلاب من معظم الاقطار العربية المشرقية، مع بعض التطعيم من طلاب اجانب، والاختلاط بين الصبايا والشباب، والاختلاط بين النشاط الدراسي والنشاطات المتاحة الاخرى، كل ذلك ترك في نفسي اثراً جديداً، ونقل حياتي وفكري وعقلي نقلة نوعية جديدة، مثلما فعل مع طلبة كثيرين غيري.

في الدراسة، كنت كعادتي متميزاً. ولا ريب ان الانتقال المفاجئ من الدراسة باللغة العربية الى الدراسة باللغة الانجليزية كان انتقالاً صعباً وشاقاً. كان علي ان أنفق من الوقت في دراسة عشر صفحات من الكتاب ما كنت انفقه على دراسة مائة صفحة لو كان الكتاب بالعربية. كان الامر، بالنسبة الى الكيمياء مثلاً، سهلاً نسبياً. ولكن كيف يمكن فهم ما تقرأ من علم النفس، ثم التعبير عما فهمت؟ في اول امتحان اجراه لنا شارل مالك في علم النفس، كان قد تولى تدريسه بعد سفر حبيب كوراني الى الولايات المتحدة، اعطاني علامة (C) وذهبت اليه أسأله واناقشه في العلامة فقال: " ان هذه العلامة هدية مني. والا، فهل هذا الذي كتبته لغة انجليزية ؟ انا لم افهم تماماً ما تريد انه تقول. وانت لم تعبر تعبيراً سليماً عما تريد ان تقول". وخرجت غاضباً من لديه. ولكنني كنت اعرف مدى ما كابدت من مشقة في فهم ما اقرأ من الكتاب. ولم تكن المعاجم تسعفني رغم انها لا تفارقني. وكان "المعجم العصري" ملاذنا وملجأنا. ولكن من اين له ان يحل مشاكلنا؟

كان في ذهني ان اناقش، في هذا الموضع، الذين يقولون بوجوب تدريس العلوم باللغات الاجنبية. لكنني سوف ارجئ هذا لموضع آخر ان تمكنت. يكفيني هنا ان اقول حمل الانتقال بالتدريس من لغة الى أخرى ليس عبئاً هيناً، ولطالما افسد على الكثيرين ممن كان من الممكن ان يبدعوا في اختصاصهم العلمي، وفرصتهم في تحقيق ذلك لضعفهم في اللغة.

ورغم انني تدبرت طريقي اخيراً، فلم تمنعني اللغة من ان احصل على علامات مميزة فيما اظن بين طلبة الصف الطبي الاول العرب. وقد سبقني في علاماتي طالبان اجنبيان، لم تكن لغتهما الانجليزية فقط افضل من لغتي. بل إن ثقافتهما نفسها كانت اوسع كثيراً مما تمكنا نحن من تحصيله من ثقافة.

ومهما يكن من أمر، فان الدراسة باللغة الانجليزية، فتحت امامي ابواب امكانات القراءة بهذه اللغة خارج حدود اختصاصاتنا، والاطلاع على ثقافة العالم من مصادرها، او مترجمة الى هذه اللغة ترجمة اقرب الى الصحة من ترجماتنا العربية. وبدات مكتبتي الانجليزية، على صغرها وتواضعها في البدء، تكبر وتتوسع، وقامت صلة مباشرة بيني وبين

الثقافة العالمية ما كان لها ان تتقدم لو اقتصرت هذه الصلة على ما يترجم منها الى اللغة العربية، لقلة ما يترجم من جهة، ولسوء الترجمة، في معظم الاحيان، من جهة أخرى.

وصلتني مرة، وانا في الجفر عام ١٩٥٨، الترجمة العربية لكتاب باسترناك، "الدكتور زيفاكو". فقرأتها، واستغربت ان ينال صاحب الكتاب جائزة نوبل عليه. ثم وصلني الكتاب مترجماً الى الانجليزية؟. فطربت لقراءته طرباً ما بعده طرب. ولطالما استعدت قراءة بعض جمله او فقراته، او حتى صفحات بأكملها، لمجرد الاستزادة من الاستمتاع. ورغم ذلك فقد كتب المترجم مقدمة لترجمته اعتذر فيها للقارئ عن عجزه عن نقل "الموسيقى" التي تتغلغل في ثنايا الكتاب بلغته الاصلية الى اللغة الانجليزية، بالرغم من حرصه على دقة الترجمة وجمالها.

بينما اكتشفت ان المترجم العربي قد حذف صفحات وصفحات من الكتاب الاصلي، والذي هو ليس اصلياً وانما هو مترجم الى الفرنسية والانجليزية، دون ان يهتز له رمش.

ومرة أخرى، وصلتني نسختان من كتاب " الانسان ذو البعد الواحد" احداهما بالانجليزية والاخرى بترجمة جورج طرابيشي، وهو فيما اعرف، من احسن المترجمين واصدقهم واجملهم لغة. وقلت في نفسي: " لاقرأه في العربية. فانا، رغم قراءاتي الواسعة بالانجليزية، ما زلت اسرع قراءة بالعربية" وقرأت مقدمة المترجم، واعجبتني، ولكن حين انتقلت الى ترجمة صلب الكتاب عجزت عن الفهم، وتوقفت في منتصف الفصل الاول منه، وقلت اجرب حظي في النسخة الانجليزية. واعترف ان الكتاب صعب، شديد الصعوبة. لكنه، مع بذل شيء من الجهد، يصبح مفهوماً على الاقل.

ان من المؤسف ان تكون عملية الترجمة الى اللغة العربية تعامل بقدر من الاستهتار والاستخفاف باللغة المترجم عنها، واللغة المترجم اليها، والقارئ العربي، وبالثقافة نفسها، حتى حين يتولاها اناس محسوبون على الادب.

كنت، مرة، في زنزانة في سجن المخابرات في عمان مع الدكتور جمال الشاعر. ولم يكن لدينا ما نفعله غير ان نقرأ. وكان يقرأ قصة ترجمها سهيل ادريس او زوجه، لا اذكر، واذا به يتوقف عن القراءة ويسأل: " ما معنى هذا الكلام؟".

قلت: "أي كلام؟".

قال: "فتاة تتحدث عن الحيض وتقول انه حدث دستوري". كيف يكون الحيض دستورياً. "متى يخالف الدستور؟!".

اخذت الكتاب منه وقرأت الجملة، وفكرت قليلاً. ثم ضحكت، وحزنت في نفس الوقت لهذه الترجمة المعيبة.

قال: "ما يضحكك؟".

قلت: لقد مرت على المترجم كلمة (Constitutional) في وصف الحيض، وهي هنا تعني ان الحيض حدث بنيوي، او عضوي، او فسيولوجي او بيولوجي او طبيعي او ما شئت من هذه الترجمات التي تعود الى الهدف المقصود. ولكن المترجم لم يفهم من الكلمة، الا ما تبادر الى ذهنه في تلك اللحظة من ان Constitutional معناها، ايضا، دستوري، فوضعها في هذا الموضع دون فهم، وباستهتار واستخفاف عجيبين.

ويلوح لي انه كان على المترجم ان ينتهي من الترجمة في وقت محدد، وان الاستعجال كان رائده الوحيد في الترجمة.

اتاحت لي اذن دراستي للطب بالانجليزي فرص المطالعة بهذه اللغة، لا اثناء تلك الدراسة، فدراسة الطب لا تتيح كثيراً من المجالات للقراءة الخارجية، ولكن بعدها، بعد ما تركت الطب للتعليم. واكثر ما قرأت، حينذاك، لم اقتصر على كتب العلم والفلسفة المبسطتين. واتسعت بذلك قاعدة المعرفة، وعرضت قاعدة الثقافة.

وفي الجامعة ربيت صداقات عديدة عمر بعضها وبعضها لم يعمر بسبب تقلبات الدهر المتواليه علي وعلى اصدقائي. فلئن كانت الكلية العربية لا تصلح لخلق الصداقات، فالجامعة، بجوها الرحب المتسع المتناول لكل اوجه الحياة، اصلح مكان لخلقها. حتى زملائي الذين اتوا معي من الكلية العربية، كعبد الرحيم بدر، وحيدر عبد الشافي، ووصفي حجاب، وعبد الله الريماوي، واحمد نمر السبع، انما نشأت صداقتي معهم وتعمقت في الجامعة لا في الكلية.

نشأت صداقات او تعمقت صداقات سابقة، بيني وبين الاردنيين، رياض الخطيب، عبد الحميد سراج، وصفي التل، حمد الفرحان، عبد الكريم الحمود، كامل الحمارنة، وبيني وبين زملائي في دراسة الطب، لا سيما حسن فرعون وعبد الله صلاح وناجي بشناق، وبين رفاقي، جورج طعمة نقولا ديب، برهان الدجاني، وبيني وبين رفاقي في التنظيم القومي، خالد مطيع، صلاح العنبتاوي.

كل مجال في الجامعة يفتح علاقات انسانية جديدة وحميمة لعلها لا تتاح بنفس السهولة في ظروف اخرى.

علاقة واحدة لم اعرف كيف انميها، هي علاقتي مع صبايا الجامعة. من ناحية، كانت

هناك مسألة ساقي المهضبة التي كانت تشكل عندي عقدة نقص غير هينة بالنسبة لعلاقتي مع الفتيات، رغم انها لم تكن عقبة في قيام صداقات كثيرة مع الفتيان. ولكن، من ناحية اخرى، كانت هناك العوائق البيئية التي معظمنا منها، والتي لم يكن فيها اختلاط، بل لم يكن فيها سفور. فلم اكن وحدي الذي لم يعرف كيف ينمي علاقاته مع صبايا الجامعة، معظم اصدقائي كانوا كذلك. اللبنانيون وابناء يافا والقدس كانوا انجح الناس في خوض غمار هذه الصلات. اما معظمنا نحن فقد كنا نكتفي بأن نغرم بالفتيات من بعيد لبعيد. نخترع غرامياتنا بانفسنا، ونكتفي بأن نبث لواعجنا لبعضنا. كان رياض الخطيب اذا رأى الفتاة التي يعجب بها، حط على كتفي غرامه المستحيل قرصاً وشداً وغضاً حتى اصيح من الالم. اما وصفي حجاب فكانت غريزته تتقد غزلاً كالشعر، لا يسمعه غيري، يلقيه على مسامعي بسرعة مائة كلمة في الثانية. فاذا رأينا الفتيات يتحدثن الى الناجحين في علاقاتهم الواسعة، نديم دمشقية، نظيم الشرابي، عمنا الحسد والكمد، والنبنا انفسنا على خجلنا وجبننا وشكونا همنا لبعضنا، وهكذا انهيت سنتي الجامعة دون ان اتحدث، مجرد حديث، الى فتاة.

وفي الجامعة، غنيت في حفل عام لاول مرة في حياتي. واخفقت في ذلك اليوم اخفاقاً ما بعده اخفاق. اقامت العروة الوثقى حفلة سمر متنوعة الفقرات من تمثيل الى موسيقى الى غناء... واذ كنت معروفاً بين اصدقائي بجمال صوتي وحسن ادائي ومحبتي للموسيقى، رشحوني للغناء في هذه الحفلة. وكانت " عندما يأتي المساء" لعبد الوهاب اغنية جديدة اكتسحت سوق الغناء. فداومت يومياً على مقهى صغير في الورشة كان يملك الاسطوانة حتى حفظتها. ولكن كان ينقصني عود لأعزف عليها موسيقاها. وفتشت كثيراً عن عود في الجامعة حتى اكتشفت يوم الحفلة بالذات، ان لدى كمال البشارات احد الطلبة الاردنيين عوداًلكن بلا اوتار! استعرت العود ونزلت الى السوق واشتريت له اوتاراً وركبتها، ووزنتها بسرعة. ولم اكد اتم عملي حتى حان وقت الحفلة. ولما وقفت على المسرح، وعزفت مقدمة الاغنية، وبدأت اغني، اذا بي اكتشف ان طبقة الاوزان عالية جداً وان من المستحيل ان اغني على هذه الطبقة! ولكم ان تتأملوا حالي حينذاك. ولا ادري هل احمر وجهي ام اصفر؟ وبدأ قلبي يخفق، ويدي ترجف. واتممت الاغنية وغادرت المسرح لا اكاد ارى طريقي.

ونزلت في حالة نفسية في منتهى السوء. ولعلي كنت اطمع فيما اطمع من الغناء ان الفت انظار بعض الصبايا، وان اثير اعجابهن، واذا بي انتهي الى كارثة. ولم اجد غير وصفي حجاب الوذ به في تلك الليلة. وكان يقدر ما اشعر به. فامضيت واياه ساعة في حدائق الجامعة، شاكياً نادباً حتى اول الامر وهو يهون علي، ثم مطلقاً صوتي بغناء احبه على كيفي وكأني اريد أن اثبت لنفسي انني مغن ماهر ولكن حظي هو العاثر.

عامان قضيتهما في الجامعة الاميركية. عامان مفعمان بالحيوية والنشاط والنشوة والفعالية والعلاقات الانسانية. عامان لم يكونا منعطفاً في تاريخ حياتي، فلم " ينعطف" في حياتي شيء كثير. ولكنهما رسخا كل ما كان في من امكانات واستعدادات نمت معي منذ طفولتي سواء كانت هذه الامكانات، في الشخصية، في العقلية، في الموسيقى، في خلق الصداقات، في الاتجاه القومي أو في الاتجاه الخلقي، في الاساس الديني الذي يقتضي انه اول ما يتغير في جامعة كهذه.

في الجامعة صمت رمضانين في عامين، فكنت بذلك من القلة القليلة التي كانت تصوم رمضان. لم اصل كثيراً. ولكن كنت كثيراً ما انزل ايام الجمعة الى الجامع الكبير القائم قرب المرفأ (الشارع النبي) لان خطيبه كان يعجبني، وكنت انشد بالاستماع اليه. وسهرت مع اصدقاء لي في "صالة بلاتش" مرة، وفي "الكيت كات" مرة او مرتين لكنني، لم أذق خمراً ولا ملت الى هذا النوع من السهرات. بل لقد جرني صديقي مرة الى شارع المتنبي، شارع العاهرات، دون ان ادري. ولما دريت؟ تركته على الباب وجلست انتظره في مطعم ابو عفيف. ولما جاءني بعد نحو ساعة حملني مسؤولية عجزه الجنسي!

خارج الجامعة انصب اهتمامي على السينما، التي اغرمت بها غراماً شديداً، على الروشة التي طالما اكلت من نعلي، فقط. لم يكن في بيروت، آنذاك، مسرح. وباستثناء ما كان يمثل احياناً في الجامعة لم ار اية مسرحية. لم يكن في بيروت فنانون يستحقون ان يسمعوا. وسمعت في ذلك الوقت ان مغنياً جديداً اسمه وديع الصافي يغني في مطعم طانيوس. لكنني لم اسمعه.

نشرت وانا في الجامعة اولى مقالاتي المنشورة. لم تكن بيروت تلك العاصمة الادبية التي تحولت اليها فيما بعد. كانت مجلتها الادبية الوحيدة هي "المكشوف" وربما كانت " العرفان" الصيداوية وغيرها تصدر ايضاً لكنني لم اطلع عليها، وكان الفرق شاسعاً بينهما وبين " الرسالة" و "الثقافة" و "الرواية" من حيث المستوى ولكنها كانت تملأ فراغاً لا بأس به. كتبت في "المكشوف" فيما اذكر مقالتين بتوقيع " الاعرج" لم اعد اذكر عن أي شيء كانتا، ولكن اظن ان احداهما كانت نقداً لرواية سخيفة ظهرت انذاك. ثم كتبت مقالتين اخريتين في مجلة "الاماني" التي بدأ يصدرها عمر فروخ بتوقيع "الرازي"، وانتخبت هذا التوقيع لتشابه الاسم والاختصاص ولم انشر اسمي لضعف الثقة في نفسي في مستوى كتابتي. اذن لم يكن ثمة منعطف في تاريخي. ولكن كان هناك " تعميق" و "تعريض" لما انا عليه.

سنتان جميلتان رائعتان، كم تمنيت ان تستمرا ولكن العين كانت بصيرة واليد قصيرة، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ودعت الجامعة، بعد ان انهيت فيها اعدادي الطب والسنة

الاولى الطبية، وعدت الى عمان واثقاً من انني لن اعود، متمنياً معجزة ما، في نفس الوقت، تعيدني.

تلك ايام ربما ساهمت في جعلي مفكراً عربياً لكنها لم تساهم كثيراً في جعلي مناضلاً عربياً. تلك الرصاصات التي اطلقناها في الاوزاعي، والاجتماعات التي عقدناها في الخلايا كان بينها وبين النضال الحقيقي مديات واسعة.

حين عدت الى عمان كان واضحاً ان المعجزة لن تتحقق وان العهد بيني وبين الجامعة قد قطع. وان علي ان اختط طريقاً آخر. وان ابحث عن عمل ما.

ولم اكن اكثر اهلي حسرة على انهيار التخطيط الذي خططناه لمستقبلنا. فقد كانت امي باحساسها الكبير بالمسؤولية، بحصيبتها التي افلت زمامها، هي التي حملت عبء الهم الاكبر.

كان عليها ان تتولى هم اطعام هذه الاسرة الكبيرة، وتربيتها، وكانت مصممة، فوق ذلك، على ان اتم تعليمي يوماً ما، بشكل ما. لم تتنازل عن املها هذا ابداً.

وصلت الى عمان، ورأيت الحقيقة بعيني. امي وسبعة اولاد، يسكنون، بعد ان غادرتنا عمتي الى دمشق، في نصف الطابق السفلي من بيتنا، المحتوي على غرفتين ونصف كان ايرادها يتكون من ايجار الطابق العلوي، ستة وثلاثين جنيهاً في العام، ارتفعت فيما بعد الى اربعين، ومما يدفعه اخواي الكبيران من عملهما في "ستوديو التصوير"، اما معاش التقاعد السوري الذي لم يتجاوز مائة وعشرين ليرة سورية فقد استطالت معاملته واحتاجت الى سنوات حتى يصرف. ثم مما تكتسبه أمي من الخياطة، بعد ان جعلت البيت الصغير بيتاً ومشغلاً في نفس الوقت.

كان ممكناً لمثل هذا الدخل ان يعيل الاسرة في ادنى مستويات المعيشة لولا مصاريفي في الجامعة التي تجاوزت المائة والسبعين جنيهاً في عامين. كان ابي قد استدان الخمسين الاولى منها قبل ان يتوفاه الله. وحينما عدت كانت امي قد استدانت من كل من يمكن ان تستدين منه. وكان الدين قد تجاوز المائة والخمسين ديناراً. ولم يكن ممكناً ان تستمر في الاستدانة اربع سنوات اخريات.

لو كنت درست الحقوق في دمشق كما يفعل الكثيرون من زملائي الذين تجبرهم احوالهم على اختصار الطريق لبقيت لي سنة واحدة للتخرج، ودبرنا امورنا باي حال من الاحوال. ولكن اربع سنوات؟ وفي الجامعة الاميركية؟ كان ذلك مستحيلاً.

لقد كان التغيير في حياتنا سريعاً ومفاجئاً بحيث هزنا هزاً عنيفاً، في اجازتي الصيفية الاولى من الجامعة وقبل ان ينشط عمل امي في الخياطة اصبح اللحم لا يدخل بيتنا اكثر من مرتين او ثلاثا في الشهر ومع ذلك، فقد كنا افضل حالاً من غيرنا. كان لنا جيران مات والدهم

كذلك وترك وراءه اسرة وأبناء في حال اسوأ من حالنا. وجاء العيد وتشجعت امي وهيأت لنا لحماً ورزاً لغذاء العيد. وطلبت مني ان ادعوا ابن جارنا هذا للغذاء. فقد كانت تعرف ان اللحم لم يدخل بيتهم منذ شهور، وانه لن يدخل بيتهم حتى في العيد. والغريب ان الناس كانوا، رغم كل هذا الفقر، يتدبرون امورهم بشكل او بآخر، فهذا الذي دعوته يوم العيد ذاك ليتذوق اللحم، بعد ان حرم منه مدة، قد تغير امره واصبح فيما بعد شخصية مرموقة في عالم البحث الادبي وتولى مناصب ثقافية مهمة في الجامعة العربية، في الاردن.

يوم الذكرى السنوية الاولى لوفاة والدي، وقبل سفري الى بيروت بايام نشأت بيني وبين أمي مشكلة. فلقد اصرت على ان تدعو مشايخ الجامع الكبير وبعض الفقراء، الذين يتجمعون امام الجامع عادة، لقراءة القرآن على روح والدي، وتناول طعام الافطار، اذ كنا في رمضان، وحاولت ان اقنعها بأن وضعنا المادي لا يسمح بهذا. وانه لو قرأ كل منا جزءاً من القرآن، بدل ان يقرأ هؤلاء القراء لكان اكثر بركة، واصدق ايماناً، وأرحم لروح ابي، ولكنها بعنادها الذي كنا نعرفه عنها، لم يكن الى اقناعها من سبيل. فاشترينا خروفاً، ودعونا المشايخ ودعونا بعض الفقراء. وقرأ المشايخ اجزاء من القرآن سريعة مستعجلة يحركون فيها السنتهم ولا يدخل الى قلوبهم. وانتظر الفقراء في الحديقة، ولما انطلق مدفع الافطار وضعنا للمشايخ، داخل البيت نصف الخروف، ووضعنا للفقراء في الحديقة نصفه الاخر. ولم تمض دقائق قليلة حتى انتهى اللحم من امام المشايخ. وكنت ارقبهم بجزع وهم يلتهمون اللحم التهاماً ويبتلعونه ابتلاعاً لا ينتظرون حتى يمضغوه. وما لبث احدهم ان قال: " هات لنا بعض اللحم" دون خجل ولا استحياء. وشعرت ان كل قطرة دم في جسمي قد اتجهت الى عروق وجهي. ولم ازيد من ان أقول له وانا اتلعثم : " هذا هو كل اللحم الموجود يا شيخنا نصف الخروف الثاني يأكله الدراويش في الخارج" فرماني بنظرة شزراء قاسية، وتمتم بكلمات لم افهمها ولكنني استنتجت انها لا بد كانت شتائم لي، وربما لامي ولابي، كذلك لما قدمنا نصف صينية الكنافة، لاننا قدمنا نصفها الاخر للفقراء لم ينبس احد منهم بكلمة. وأتوا عليها. وخرجوا من الدار لا يلوون على شيء. لم اسمع منهم كلمة " الحمد لله" ولا "رحمه الله" ولا ريب في انهم كانوا يلعنوننا في سرهم ويلعنون الساعة التي قبلوا فيها دعوتنا، ولا ريب في اني لعنتهم انا ايضاً في سري، وانا اعلم أن الله لن يتقبل منهم دعواتهم وقراءتهم قبل الافطار ولن يتقبل منهم لعناتهم بعد الافطار.

كان يوماً عصيباً لم يمح من ذاكرتي ابداً. قلت لامي: " هل اعجبك هذا الذي حصل؟".

قالت، والدم يكاد يتفجر من وجهها: لقد عملنا الواجب. لا يهمني ما قالوا، ولا يهمني ما تقول انت". ولكنها كانت المرة الاخيرة التي دعت فيها قراء محترفين لاحياء ذكرى وفاة ابي.

كان علي ان اجد عملاً ولم يكن الالتحاق بالوظائف الحكومية لذلك سهلاً فكادر الموظفين ثابت او كالثابت لان ميزانية الدولة ثابتة او كالثابتة فلا يكاد يفرغ منصب ليشغله موظف جديد الا اذا انتقل صاحبه الى رحمة الله او الى التقاعد.

وقد كان من الصدفة المحضة ان شغر منصب مدرس الطبيعيات في متوسطة عمان لان الذي كان يتولى تدريس هذه المادة قد عين مديراً لمدرسة ابتدائية. فقرر مدير المعارف. سمير الرفاعي تعييني مدرساً للطبيعيات مكانه لا سيما انه كان ثمة حاجة مستمرة في المعارف لهذا النوع من الاختصاص. ورغم إني لم أكن خريجاً جامعياً مختصاً فإنه دراستي في الجامعة في إعدادي للطب والسنة الاولى الطبية جعلتني شبه مختص في هذا النوع من العلوم. كان خريج الجامعة يعين في الدرجة الثامنة، التي يتراوح مرتبها بين ثلاثة عشر وستة عشر جنيهاً، وخريج الثانوية في الدرجة العاشرة أي بين ستة جنيهات وثمانية ونصف. ولأنني كنت بين بين فقد قرر الرفاعي تعييني في الدرجة التاسعة أي براتب تسعة جنيهات في الشهر. وكان علي ان استلم العمل والوظيفة مع بدء السنة الدراسية، ولكن سوء حظي أبي الا ان يلاحقني. فدرجتي التاسعة هذه كانت اضافة جديدة من الاضافات النادرة الى ميزانية مديرية المعارف الثابتة او شبه الثابتة ولكن لم يكد يتم تعييني حتى قامت الحرب العالمية الثانية، وسحبت وزارة المستعمرات في بريطانيا التي كانت المرجع الاعلى في الموافقة على ميزانية الاردن، الميزانية لاعادة النظر فيها. وهكذا اصبحت الدرجة ملغاة ولم يكن امام سمير الرفاعي مجال للتصرف غير ان يعرض علي درجة عاشرة موجودة في الميزانية القديمة، ووعد ان يكون ذلك مؤقتاً ريثما يتم اعادة التصديق على الميزانية الجديدة. ولم يكن امامي ابداً ان اقبل رغم ما في ذلك من غبن لي. فماذا كان بامكاني ان اعمل لو لم اقبل؟ وهكذا عينت معلماً للطبيعيات في متوسطة عمان بستة جنيهات فحسب.

ورغم ذلك فقد تصرفت وكأنه خيط الامل بالعودة الى متابعة دراسة الطب، منذئذ او في أي مستقبل قريب. فذهبت اول عودتي من بيروت الى الدكتور فاوستوتيزيو، طبيب

المستشفى الايطالي الذي كان تولى علاج ساقي والذي اصبح طبيب عائلتنا، وطلبت منه ان يسمح لي بحضور العمليات الجراحية معه لكي لا انسى درس التشريح فوافق. وهكذا داومت، طيلة العطلة الصيفية ثلاثة ايام في الاسبوع، في غرفة العمليات في المستشفى.

في الحقيقة لم استفد كثيراً من هذا الدوام. فالفرق بين التشريح والجراحة فرق كبير. وليست عندي فكرة بعد، عن الامراض التي تجري العمليات من اجل علاجها وكنت اكتفي بالمشاهدة ولم اساعد في اية عملية. لكن هذا الدوام خدمني اولاً من حيث انه ادام لوقت اتصالي بالطب. وخدمني ثانياً، بانه خلق لي مبرراً لترك الدار التي تتحول في النهار الى مشغل خياطة. وفتح لي ابواب الحديث السياسي مع الدكتور تيزيو الذي كان فاشياً متحمساً لموسوليني، مؤمناً بان الحضارة الديمقراطية الغربية على وشك الانهيار، وان ايطاليا والمانيا في سبيلها الى بناء حضارة جديدة تقوم على اسس جديدة، معتمدة على اطلاق طاقات الانسان المعاصر التي تخنقها، في زعمه، الديمقراطية. ربما لم اناقشه كثيراً في ما فعلته الفاشية والنازية في وطنيهما من ابداعات بناءة في وقت كان العالم الغربي فيه يمر باعنف ازماته الاقتصادية والسياسية بعد الانهيار الاقتصادي الذي اصاب العالم الديمقراطي البورجوازي بعد ازمة عام ١٩٢٩، لكنني ناقشته في سياسة ايطاليا في ليبيا، وفي عدوانها على الحبشة. فكان يقول انه لولا ان بريطانيا وفرنسا تستعمران العالم كله لما فكرت ايطاليا في التوسع الاستعماري.

الى جانب ذلك فقد استفدت، من حيث لا احتسب، فائدة اخرى. فقد كان دوامي في المستشفى يتيح لي، بقليل من المكر والخبث ومراقبة المواعيد، ان اشاهد لمعة بسيسو التي كانت تزور خالتها الراقدة في المستشفى، (والتي كنت قد صادفتها في بيروت ثلاث مرات او اربعاً، واعجبت بها) واتملى جمالها، ولكن، كالعادة، من بعيد لبعيد، ومن اين كان لي انذاك ان احلم بانها ستكون يوماً ما حبيبتي وزوجتي وشريكتي في همومي وام اولادي؟ على ان رؤيتي لها كانت في كل مرة ترسخ اعجابي وانبهاري وفتنتي بها. وداومت في المستشفى الى ان بدأت الدراسة في المدرسة وبدأت مرحلة التدريس في حياتي.

كان على اسرتنا ان تناضل في جبهتين، ان تعمل لادامة وجودها في الحاضر وان تعمل على المحافظة على احلامها في مستقبل افضل كان علينا ان نعيش، وكان علينا ان لا نستسلم لهذا النمط من العيش. وكانت امي قائدة هذه العملية النضالية حملت مسؤوليتها بجد وتصميم. وظلت على جدها وتصميمها وايمانها هذا ورفضها للاستسلام لضغوط الواقع، الى ان أتمت مهمتها في تعليم اولادها جميعاً ونقلت الينا هذه الروح النضالية.

هل كانت ثمة علاقة بين هذا النوع من النضال في سبيل الاسرة الذي تشربناه من الام، وذلك النوع من النضال في سبيل الامة الذي مارسته فيما بعد. لقد سبق لي ان قلت انني لا أؤمن بوضع القوانين العامة في تفسيرات السلوك الشخصي وان معظم هذه القوانين في علم النفس قوانين احصائية محضة. ولكني اجزم بانه، في حالتي انا فان هذا الموقف النضالي قد كان له اثر كبير في تكوين نفسيتي النضالية الرافضة للاستسلام لقوى الواقع.

صحيح ان "رفض الاستسلام لقوى الواقع" قد يترجم ترجمات كثيرة فيتخذ في الحياة صوراً متعددة بل متناقضة، فالنضال من اجل الامة الا واحداً منها. ولكنه اصل من الاصول المتعددة التي صنعت باجتماعها مستقبل حياتي الحافل بالدوام والامال والكفاح والنضال.

كان علينا ان نعيش. ولكن كان علينا ايضاً ان نصنع مستقبلاً افضل. ذلك ما عرفته امي ربما دون ان تعرف كيف تضعه في كلمات، وعلمتنيه كما اشربتنا اياه بتربيتها الصارمة الشديدة، وتصميمها الذي لا يعرف الكلل، والا فهل كان ممكناً ان تتصرف ذلك التصرف العجيب يوم قبضت راتبي الاول؟

لقد انتظرت بلهفة ان ينقضي الشهر الاول من الوظيفة لاقبض راتبي الاول. وحين جاء اليوم الموعود تسلمت الخمسة الدنانير وبضعة وسبعين قرشاً – فقد كانت ثمة حسومات من الراتب لا بد منها ولا ادري ماهيتها – تسلمتها بمزيج من الفرح والغم، اما الفرح، فلأنني، لاول مرة في حياتي، اكسب دخلاً بعرق جبيني. وأساهم في تخفيف الكربة عن أهلي. واما الغم، فلقلة ما استلمته من مال، استحق في الحقيقة اكثر منه.

مع ذلك، فقد تغلب الفرح على الغم، وبكثير من الرضى عن الذات احببت ان اشرك اهلي في فرحي. وانطلقت من المدرسة مباشرة الى محل " ابو مير" الحلواني، واشتريت حلويات مختلفة بخمسة وسبعين قرشاً، وحملتها معي الى الدار، متصوراً في ذهني صورة الاهل، وصغارهم على الاخص، حين يرون ما جلبته لهم مما لم يدخل دارنا منذ وفاة ابي، فيغمرهم الفرح مثلما يغمرني، ويعم البشر بيتاً لم يعرف البسمة منذ عامين.

دخلت الدار بما احمل ووضعته، معتزاً مغتبطاً، على الطاولة، وتجمع الاهل من حولي. وقلت: " تعالوا انظروا ما اتيتكم به". وتراكض الصغار، فرحين مبتهجين، وفتحوا الربطات ليلتهموا ما بداخلها. واذا بامي يزبد وجهها بالغضب. وينتفض جسدها كله بالغيظ، وتصيح بأعلى صوت منحها الله اياه:

ما هذا؟! ما هذا؟! مجنون انت؟! اهبل؟! هل اشتغلت شهراً كاملاً من اجل ان تضيع مالك على مثل هذه الاشياء؟ اليس عندك عقل؟! اليس عندك تفكير؟! ان تقدر...".

وانطلقت في مونولوج اعرف، في مثل هذه الاحوال، ان من المصلحة ان لا اقاطعها فيه، وان اتركها لها ان تفرغ كل ما في نفسها من هم مكتوم متراكم. وان اصمت. حتى تنتهي من تعداد الديون التي تنتظر السداد والمصاريف المهمة المستعجلة التي لا تحتمل التأخير، و.... و....

وصمتت. ولكنها اصرت على ان اعيد ما اشتريت الى صاحبه. ولم يكن ذلك بالطبع معقولاً. وصبرت حتى هدأت عاصفتها. واطعمت من الحلوى اخواني. ولم ترض هي ان تذوقها، بل لم ترض ان تتسلم الجنيهات الخمسة، التي اعطيتها لها، حتى اليوم الثاني.

ولكم ان تتصوروا مبلغ خيبة الامل التي اصابتني. وما زلت حتى اليوم استشعر ذلك الشعور بالمرارة وبالغم الذي سرعان ما سادني بعد ما كنت مليئاً بالفرح والاعتزاز والشعور بقيمة نفسي.

لم يكن يهمها ان يفرح ابناؤها اليوم. كان يهمها اكثر ان تبني المستقبل. اعرف انها ليست محقة، فلحظة فرح في الحياة تستحق بعض التضحية. ولكن الفرح كان قد غادر حياتها. ولم تعرف بعد غير " المسؤولية".

وهكذا دخلت "سلك" التعليم كما يقال. دخلته وفي نفسي تهيب وخشية. وفي نفسي اقبال وتشوق.

اما التهيب والخشية فمن هذا التشويه الذي في ساقي وما يمكن ان يثيره في الطلاب من استخفاف وتعليقات اعرف قدرتهم عليها، وقد كنت قبل اشهر قليلة طالباً مثلهم. انهم يبحثون عن أي نقص في جسم الاستاذ او تعابيره او حركاته ليجعلوا منه مدخلاً الى السيطرة عليه، وافقاده هيبته التي لا بد منها ليكون معلماً جيداً. وكنت قد قرأت اثناء العطلة الصيفية كتابين في التربية لم يفيداني كثيراً في معالجة هذا الموضوع بالذات، لكنني كنت قد قرأت قصة نشرها ابراهيم المازني في "الرسالة" او في "الرواية"، وقد كان هو نفسه اعرج – ومنه تعلمت تعبير " الساق المهيضة" – يعالج فيها موقفاً صعباً حاول الطلبة ان يوقعوه فيه معالجة ناجحة.

قال انه دخل مرة في عصيرة يوم حار قائظ الى الصف. وما كادت تمر دقائق حتى اشم رائحة خبيثة نتنة تنبعث من احد الاركان، ادرك معها ان الطلبة قد اصطنعوها من احدى اللعب التي تبعث مثل هذه الرائحة، يريدون منه ان ينشغل بها، وان يسأل ويتساءل عن مصدرها، لينكر الطلبة معرفتهم، ويمضي هو في استكشافه لعلائم "الجريمة"، وهم اثناء ذلك، يتضاحكون ويضجون ويضيع الدرس، وتضيع معه هيبة الاستاذ.

قال انه فكر قليلاً، ثم اختار سبيلاً يرد فيه كيد الطلبة الى نحورهم أو لا يشم الطلبة انفسهم هذه الرائحة الخبيثة ويتضايقون منها؟ اذن فليخلق هو ضيقه وليرم الكرة الى ملعبهم. فتجاهل الموضوع تماماً، وطلب من عريف الصف ان يغلق النوافذ. احتج التلاميذ بالحر، ولكنه اصر، واستمر في درسه متحملاً الرائحة، ولكن راضياً عن نفسه لان الطلبة يتحملون منها مثلما يتحمل هو، وان لعبتهم قد انقلبت عليهم، فلم ينجحوا في اثارة الاستاذ، ولا في تعطيل الدرس، ودفعوا هم انفسهم ثمن لعبتهم غالياً!

هذه القصة علمتني، آنذاك، اكثر مما تعلمت من كتابي التربية اللذين قرأتهما، علمتني ان لا استاء حين يريد الطلبة استثارتي، وان احتفظ باعصابي هادئة الا حين ارى انا نفسي أن المصلحة ان اصطنع استثارتها.

قصة صغيرة أخرى كنت قد قرأتها في مكان ما وظلت عالقة في ذهني، استفدت منها كذلك، هي القصة المروية عن عنترة العبسي حين سئل "ما سر شجاعتك؟، فقال: " اضرب الجبان ضربة يهلع لها قلب الشجاع" ومعناها في التدريس، واضح، ثمة طلبة يريدون افتعال المشاكل مع المدرس اعتماداً على قوة جسمهم. لا تبدا بتأديبهم. وأبدأ بتأديب من هو اضعف منهم، تعلمهم الادب، ولو كان ذلك بتضحية بسيطة لمعاني العدالة!

وتعلمت، من كوني طالباً، مبدأ آخر، علمت في السنوات اللاحقات ان الكثيرين من رجال الصحافة والقلم يستعملونه. وهو انك اذا اردت ان تنقد طالباً يريد استثارتك بشكل ما، ولا تريد انت "تعلق" معه، فوجه نقدك الى الصف بمجموعة. وما دمت لم تستثر شخصياً، ولم تجرح كرامته امام زملائه، فانه يتقبل النقد منك، حتى ولو عرف، بينه وبين نفسه، انك انما تقصده هو بالذات. الا ترى الى الصحف العربية، حين تريد ان توجه لدولتها نقداً تعرف انها لن تحتمله، كيف "تعمم" هذا النقد فتوجهه الى الدول العربية كافة، فاذا به ينشر دونه حساب؟!

ولكن، في الحقيقة، كانت قد استقرت في نفسي حقيقة اهم من هذا كله، وتعلمتها من خبرتي كطالب، وهي ان المعلم الجيد الجاد، المتمكن من موضوعه تمكناً جيداً، المهيئ لدروسه تهيئة جيدة، المالء لساعة التدريس ملأ جيداً، المحترم لوقته ووقت التلاميذ، المحترم لتلاميذه والمحب لهم، ولو اساءوا، لن يجد في التعامل مع التلاميذ صعوبة تذكر، حتى وان كان مشوهاً مهيض الساق، كما يقول المازني.

بذلك جهداً كبيراً من اجل ان اكون معلماً جيداً، وبخاصة انني ادرس مادة ليست محببة تماما للطلبة او لكل الطلبة. هيأت نفسي، مبدئياً، بأنني خصصت الدرسين الاولين لكل صف لشرح معنى هذه العلوم التي ندرسها واهميتها. وكان لا بد من ذلك، في رأيي، لان في تدريس العلوم بخاصة قفزة نوعية بين المرحلتين الابتدائية والثانوية، فلكل شيء فيها يكاد يكون جديداً كل الجدة على الطالب سواء في الكيمياء او الفيزياء او الاحياء. وكل ما تعلمه في المرحلة الابتدائية لا يهيئه لولا ولوج هذا الجديد في المرحلة الثانوية. فلا بد اذن من تهيئة الطالب ذهنياً لهذا العالم الجديد الذي سوف يلجه.

كنت اكتب رؤوس اقلام فيما اريد ان اقول، واركز على المهم لا على التفصيلات التي اعرف ان الطالب سوف ينساها بمجرد نجاحه في الامتحان. لم أؤمن باسلوب المحاضرة. وانما اتبعت اسلوب الحوار، واشراك اكبر عدد ممكن من الطلبة في الوصول الى الحقائق المطلوبة. شددت على القواعد العامة وما يتصل بها من رياضيات بسيطة، وشددت على تطبيقات هذه القواعد العامة في الحياة العملية. تلك تعمق فهمهم، هذه تربط معلوماتهم بالحياة التي يعيشون في غمارها.

لم اتقيد تماماً بمادة الكتاب المقرر، وان تقيدت بالمنهاج الموجود فيه. كنت في معظم الاحيان اتوسع باكثر مما في الكتاب اذا كان هذا التوسع يقرب المادة الى فهم الطلبة. واقفز على كثير مما في الكتاب قفزاً اذا اعتقدت ان "الحفظ" دون "الفهم" هو السبيل الوحيد للوصول اليه.

مثلاً، كتاب الكيمياء يختصر قوانين الكيمياء والتفاعل والتكافؤ والمعادلات والوزن الذري في اقل من ثلاثين صفحة. ويترك تسعين صفحة للفلزات يبحثها واحداً بعد الآخر. كان علي أن اعكس الامر، فاصرف اكثر من نصف السنة على الصفحات الثلاثين الاولى، مضيفاً اليها معلومات غير مطلوبة منهم في الامتحان، عن الذرة وتركيبها تساعدهم على "تفهم" ما يحدث في الكيمياء من تغيرات، موقناً بان ما يتعلمونه في هذا الباب هو اساس الكيمياء الذي سيبقى في اذهانهم وسيساعدهم في دراساتهم المقبلة في الصفوف الثانوية العليا او في الجامعة لمن يختار منهم دراسة العلوم، واقفز فوق الفلزات قفزاً سريعاً لأستعملها تطبيقاً محضاً لقواعد الكيمياء الاساسية، الا ما له تطبيق عملي في الحياة، مؤقناً انهم، ولو حفظوه كله غيباً سيفقدون ما حفظوا بمجرد انتهاء الامتحان.

هذا الاسلوب في التدريس كان يتطلب مني جهداً كبيرا في تهيئة الدروس، جهداً كبيراً في داخل الصف لمحاولة الوصول الى اذهان الطلبة على اختلاف مستوياتهم. ساعدني على ذلك ضعف التفتيش المركزي، الذي كان لا بد ان يختلف معي لو كان تقليدي النظرة، وانعدام الامتحانات المركزية في كل الصفوف التي درستها.

ومن المؤسف ان التدريس في هذه الايام لا يتيح للمعلم هذه الحرية التي كانت تتاح لنا في تدريسنا. فالمطلوب الان هو حفظ الكتب المقررة عن ظهر قلب. صحيح ان لا احد من المسؤولين يعلن ذلك. ولكن حين تكون اسئلة الامتحانات المركزية منصبة على ما في الكتب المقررة من معلومات بصرف النظر عن اهميتها، حين يكون انتخاب الكلية التي يدرس فيها الطالب متعلقاً احياناً بربع علامة او نصف علامة، فليس امام المعلم الا ان يدرس كل ما في

للكتاب المقرر تدريساً حفظياً لينجح طلبته في الدخول ما يطمحون اليه من كليات. لا مجال للاختيار، ولا مجال لتقديم الاهم على المهم. ولا مجال لتوسيع ثقافة، بل ولا مجال لتعميق الفهم والاستيعاب على حساب التقليل من المعلومات المحفوظة. وانا واثق من ان بعض المعلومات التي ترد في اسئلة بعض الامتحانات لا يعرفها المدرسون بل ولا الممتحنون انفسهم الا بالرجوع الى مراجعهم.

كنت اكثر من الامتحانات لأضمن " استمرار" دراسة الطلبة واجعل هذه الامتحانات في دفاتر ارجعها الى الطلبة مصلحة، فيعرف الطالب خطأه، واشرح الاسئلة واجوبتها في الصف. واطلب من التلاميذ قراءة الدرس المقبل وامتحنهم فيه بسؤال بسيط جدا قد يقتصر على عنوان الدرس لاحثهم على التعامل مع الكتاب، ولأهيئهم لفهم الدرس حين اشرحه.

احب المعلم الذي يعطي في الدرس اوسع مما في الكتاب المقرر، ويمتحن في المهم المهم من الكتاب المقرر. التوسع هو من اجل تسهيل الاستيعاب، واعطاء خلفية المضمون المقرر، واثارة الاهتمام، وتحبيب الدرس الى الطالب، وليس من اجل حشو عقله بما لا يفيده.

والمعلم الوحيد بيننا الذي كان يتبع نفس الاسلوب هو مدير المدرسة، الاستاذ سعيد الدرة في تدريسه للتاريخ. كان يعطي تلامذته خلفية العصر الذي يدرسه، يقرأ لهم قصائد العصر، ويروي لهم حكاياته ويضعهم في جو الدرس الذي يدرسه. كل هذه "الاضافات" ليست للامتحان، ولكنها لخلق القدرة على التواصل والاستيعاب وتحبيب الدرس الى الطالب. واسوأ معلم ذلك الذي يكلف طالباً بقراءة الدرس المقرر بصوت عال من الكتاب، مكتفياً من الشرح بشرح معنى الفقرة المقررة فحسب.

في العام الثاني من تدريسي توسعت في استعمالي نحريتي توسعاً اكبر. كان الصف الثاني الثانوي، اعلى صف في المدرسة، يضم حوالي خمسة واربعين طالباً. اخترت منهم العشرين المتقدمين بالعلوم، غير مغلق الباب امام من يحب من الآخرين، وجعلت لهم درساً خاصاً بعد نهاية الدروس كل ثلاثاء، خصصته لاتحدث لهم كل اسبوع عن زاوية من زوايا العلم لا علاقة لها بمقررهم بشكل مبسط. فمرة نتحدث عن نظرية التطور. ومرة عن الفلك. ومرة عن الذرة. ومرة عن تاريخ تطور العلوم. واتيت معي، بالاضافة الى ذلك، بعشرين عدداً منتقاة عن اعداد مجلة المقتطف من داري، واشرت على مقال واحد في فهرس كل عدد. واعطيت كل طالب عدداً طالباً منه تلخيص المقال المؤشر في صفحة واحدة والاتيان بها بعد اسبوع، ثم اداور الاعداد بين الطلاب كل اسبوع. ولم لكن اقرا ملخصاتهم هذه، كنت اجمعها منهم ثم ارميها، فلا يهمني ما يكتبون. وانما يهمني ان يقرأوا، وان تقوم علاقة متينة بينهم وبين العلم، وان

يحبوا العلوم، وان يوسعوا ثقافتهم فيها.

وانا مؤمن بانني قد نجحت في ذلك كله نجاحاً كبيراً، رغم ان ذلك كان يكلفني جهداً عظيماً. كان احد زملائي المعلمين يراني في غرفة المعلمين مشغولاً بالتصليح وبالتحضير والتهيئة. وكان يضحك ويقول: " انت مجنون. انهم لا يستحقون منك كل هذا الجهد". وكثيراً ما كان يمزق اوراق الامتحان نفسها قبل أن يقرأها ثم يخرج دفتر العلامات ويضع العلامات للطلبة من "عنديته"، قائلاً: فلان.. لقد بشرته بالسقوط من اول العام ويضع له (٣٠). "علان" ولد شاطر ويضع له (٨٠). وهكذا.

ولكن، لعل ما هو اصعب في مهنة التدريس من التدريس نفسه، أي نقل المعلومات الى الطالب، هو اقامة علاقة بناءة سليمة بين الاستاذ والتلميذ. علاقة هي، من جهة، من مصلحة الاستاذ، لأنها ينبغي ان تمنحه الاحترام والهيبة والمحبة في آن معاً، وهي من جهة، من مصلحة الطالب لانها، عدا انها تحسن استعداده للتلقي، تخلق فيه قوة الشخصية، والثقة بالنفس. ولم يقتصر نشاطي على ذلك. دربتهم على النشيد، حفظتهم الاناشيد التي شاعت في ذلك الوقت، لا سيما "موطني"، و "نحن الشباب". والفت لهم مسرحية صغيرة يقلدون فيها الاساتذة، اخذت فكرتها عن مسرحية شاهدتها في الجامعة الاميركية، مثلها الطلبة في حفلة سمر نظمتها لهم.

بالاضافة الى ذلك، لم اترك مجالاً لربيهم فيه خلقياً وقومياً وثقافياً الا طرقت ابوابه. كنت احيانا اقرأ لهم من المجلات الادبية واحياناً اغتنم فرصة تعليم النشيد لبث الروح القومية وكل ذلك خارج الحصص. يقول اساتذة الطب لطلبتهم ان يذكروا في حياتهم العملية ان كل مريض هو مريض قائم بذاته، وانه ليست هناك امراض، ولكن هناك مرضى". كذلك الامر في التدريس.

من ناحية علاقتي بالطلبة حاولت ان تكون نموذجية كما افهمها. لا اترخص في علاقة "الاحترام" التي يجب ان يظهرها الطالب لاستاذه، ولكنني كنت أومن بان هذا الاحترام هو نتيجة من نتائج اواصر العلاقة والمحبة والتفهم التي يجب ان تقوم بين الاستاذ وطلابه، داخل الصف وخارجه في آن معاً.

كان المختبر غرفة خاصة لي كثيراً ما الجأ إليها بعد انتهاء الدوام، فليس من السهل ان اذهب كل يوم الى البيت بعد انتهاء الدروس، فالبيت كان، في نفس الوقت، مشغلاً للخياطة، ليس لي فيه متسع في النهار. فكنت اقضي ساعة في المختبر كل يوم، اهيئ فيه بعض التجارب لليوم التالي، او اقرأ، او اكتب. وفي نفس الوقت استعمله "لتأديب" طلابي اذا صح التعبير.

لا بد لبعض الطلبة، مهما حاول الاستاذ فرض هيبته واحترامه، من ان يسيئوا التصرف في الصف، عن عمد احياناً، بغية استثارة المعلم، او عن غير عمد. وليس من السهل على المعلم ان يتغاضى عن ذلك ولا هو من مصلحته او مصلحة الصف. وليس سهلاً عليه ان يحتفظ دائماً بهدوء اعصابه، كما ان ليس من المصلحة ان يستثار الى رد الفعل العنيف، لا سيما حين يتعمد الطالب ذلك.

كان الحل عندي في المختبر. فلقد لاحظت ان الطالب "الذئب" امام زملائه، ينقلب حملاً وديعاً امام المعلم حين يكون وحده. كنت استدعي الطالب المشاغب ليقابلني في المختبر بعد الانصراف. فاجلس له جلسة ابني معه فيها جسور محبة واحترام. اقسو عليه احياناً والين له احياناً، وفي كلا الحالين لا يخرج من عندي الا راضياً.

وبعامة، يمكن القول، بان التربية، كعلم النفس، لا يمكن فيها وضع قواعد وقوانين محددة لكيفية التعامل مع الطلبة، فكل طالب له مشكلته الخاصة، ويستدعي اسلوباً خاصاً للتعامل معه، ورغم ان الاستاذ لا يمكن ان يكون له مائة اسلوب، مثلا لمائة طالب، فان الاستاذ القدير قادر على ان يقسم طلبته، من حيث التعامل، الى فئات، تتحدد معتمها من حيث السن، ومن حيث النضج الجسماني والنفساني، ومن حيث القدرات الذهنية، ومن حيث المواقف الاخلاقية، ويتعامل مع كل فئة بالشكل الذي تهيئه له امكاناته.

ثلاثة تصرفات لم اتسامح فيها ابداً، اولها المحاولات العامدة لاحداث الشغب في الصف. والعلاج العام، كما اسلفت، لهذا الموضوع هو علاج وقائي أي انه بيد المعلم نفسه ان عرف كيف يمتلك مادته، وكيف يوصلها، وكيف يملأ فراغ الدرس. ورغم ذلك، فانه يظل، بحاجة الى علاج ردعي.

لست من انصار الضرب او العقاب الجسماني، ورغم انه مسموح به حتى اليوم في بريطانيا. وقد استقر في نفسي، حتى قبل ان امارس التعليم فعلياً انني لا يجوز ان الجأ الى الضرب البتة. ولكن المعلم، اولاً وآخراً، انسان. وهو قد لا يمتلك دائماً الهدوء العصبي الضروري للتقيد بمثل هذا القيد الذي ينبغي ان يكون من داخل النفس قبل أن يكون من الخارج، من ادارة المعارف مثلا. ان عدم امتلاك المعلم لاعصابه ضعف لا يجوز له ارتكابه، ولكن من منا يقدر ان يقول انه لم يفقد هدوء اعصابه يوماً ما ؟!

وهكذا لجأت الى الضرب، في سنتين من التدريس، مرتين على الاقل اذكرهما جيداً، وربما مرة او مرتين اخريين لا اذكرهما، ولكن ذكرني باحداهما احد المضروبين بعد اكثر من اربعين عاماً.

اما الحادثة الاولى التي اذكرها جيداً، فقد حدثت في الصف السابع الابتدائي كان قد مضى علي في التدريس ثلاثة او اربعة شهور دون مشاكل عويصة، وكنت غارقاً في خضم شرح قاعدة ارخميدس، واذا بصوت كصوت طرقعة معدنية يخرج من ركن من اركان الصف. لم يكن الصوت نفسه مهماً. وكان بامكاني ان اهمله، وان اتابع الدرس وكأن شيئاً لم يحدث. ولكن لعل خوفي من عاهتي وما يمكن ان تثيره في نفوس التلاميذ من رغبة في الشغب، صور لي مباشرة صورة استاذ لي كنا نأتيه الى الصف بهذه الالعاب الصفيحية الصغيرة التي تطرقع حين نضغط عليها وتصدر اصواتاً مثيرة فنشغله في التحقيق في مصدرها، ونضحك نحن ونمرح اثناء ذلك ونملأ الصف هزءاً وسخرية وشغباً. وبدلاً من ان تدفعني هذه الصورة الى اهمال الحادثة، كما نصح بذلك المازني في مقاله المعهود، اصابني هلع من ان هذا الصوت هو بداية نهايتي، وانني لو سكت عنه اليوم، فسيصبح ديوان التلاميذ غداً.

توقفت عن الدرس، وبعصبية شديدة اتجهت الى مصدر الصوت، وجسمي كله يرتجف غضباً، وسألت من اين جاء هذا الصوت فلم يجبني احد وساد الصف سكون رهيب، واعدت السؤال بصوت اعلى واكثر عنفاً وغضباً من اين جاء هذا الصوت؟ واذا بطالب يقول بكل ادب وخشوع، وربما خوف: " مني انا يا استاذ"، ويرفع في يده "الالة" التي اصدرت الصوت، واذا بها "المماكة" او الغطاء المعدني الذي تغطى بها اقلام الرصاص او الكوبيا! المسألة، اذن ليست مقصودة، ولا هي مسألة "صرصار" أو "ضفدع" معدني. وادركت في الأوان ان الطالب لم يتعمد احداث شغب ما، وانما حدث معه "الحادثة" وهو يلعب بالمماكة بين يديه من غير قصد منه. كان ينبغي ان اعود الى موضعي وراء طاولتي، بعد ان ادركت ذلك، وان اتابع الدرس. ولكن ثورتي، وربما هلعي المسبق، كانت قد وصلت في شحنتها الى درجة لا بد لها من تفريغ. فما كان مني الا ان صفعته على وجهه صفعة قوية، اكتفيت بها ودرت لاعود الى مكاني، واذا بطالب آخر امامه يضحك. كانت تلك فرصتي لإفراغ ثورتي غير المنطقية. فسحبت هذا الطالب الضاحك امام الصف كله، وضربته على وجهه عدة ضربات، ولم استفق لنفسي الا حين رأيت الدم ينزف من انفه. اخرجته من الصف. وعدت اريد ان اتابع الدرس ولكنني كنت في حالة هياج عصبي، لم اتمكن معه من النطق بكلمة واحدة. وبقيت ساكتاً ما لا يقل عن عشر دقائق، والصف ساكن سكون الاموات، ترمي الابرة فتسمع صوتها كما يقولون، حتى تمكنت بعد ذلك من متابعة الدرس.

هذه الحادثة تدل على ان الضرب، في المدارس، دليل ضعف في الاستاذ، وليس دليل قوة. ولعل ما يذكرني بها تفصيلياً بعد خمسة واربعين عاماً، هو انني لم استفق من تأنيب ضميري فيها، رغم مرور كل هذه السنوات.

ويا لهذا الضمير ما اقبحه! انه في كل حياتي العملية يلاحقني ويؤنبني على ما ارتكبت من ذنوب صغيرة، على قلتها، دون ان يذكر حسناتي، على كثرتها، ويهنئني عليها.